المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاءِ رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ الزُّخرُفِ، سُورةُ الدُّخَانِ

(المجلَّدُ الثَّاني والثَّلاثونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الزُّخْرُفِ

سورةُ الزُّخرُفِ

سورةُ الزُّخرُفِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّخرُفِ).[1]

سورةُ الزُّخرُفِ مَكِّيَّةٌ،[2] وحُكيَ الإجماعُ على ذلك.[3]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الزُّخرُفِ:

1- إقامةُ البَراهينِ على وَحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

2- تسليةُ النَّبيِّ - ﷺ - عمَّا لَحِقَه مِن أذى المُشرِكينَ.

(1) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الزُّخرُفِ؛ لِقَولِه تعالى: وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا [الزخرف: 34، 35]، فكَلِمةُ (زُخرُف) وقَعَت فيها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ، فعَرَّفوها بهذه الكَلِمةِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/421)، ((تفسير ابن عاشور)) (25/ 157).

(2) وقيل: إلَّا قولَه تعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا [الزخرف: 45] ؛ فإنَّه مدنيٌّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (20/545)، ((الوسيط)) للواحدي (4/63)، ((تفسير الزمخشري)) (4/235).

(3) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (5/40)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/72)، ((تفسير القرطبي)) (16/ 61)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/421).

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تَناوَلَتْها سُورةُ الزُّخرُفِ:

1- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

2- تسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - عمَّا لَحِقَه مِن قَومِه.

3- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَعضِ نِعَمِه على خَلْقِه.

4- عَرضُ بَعضِ افتراءاتِ المُشرِكينَ وأقوالِهم الفاسِدةِ، مع الرَّدِّ عليها وتَفنيدِها، وبيانِ سُوءِ عاقِبتِهم في الدُّنيا والآخرةِ.

5- ذِكرُ جانبٍ مِن دَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وجانِبٍ مِن قِصَّةِ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ، ومَوقِفِ المُشرِكينَ مِن عيسى عليه السَّلامُ.

6- بِشارةُ المؤمنينَ بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيمِ، وبَيانُ عِقابِ المُجرِمينَ في جهنمَ وتَمَنِّيهم الموتَ.

7- تَوجيهاتٌ للنَّبيِّ - ﷺ -، مع ذِكرِ بَعضِ أدِلَّةِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (1-8)

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5)
وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا
أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

غريب الكلمات:

أُمِّ الْكِتَابِ: أي: أصلِ الكِتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ، وأُمُّ كلِّ شَيءٍ أصلُه.

أَفَنَضْرِبُ: أي: نُمسِكُ ونَترُكُ، يُقالُ: ضَرَبتُ عنه وأضرَبتُ عنه، أي: تَركتُه وأمسكتُ عنه، وأصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ.

صَفْحًا: أي: إعراضًا، يُقالُ: صَفَحتُ عن فُلانٍ: إذا أعرَضتَ عنه، والأصلُ في ذلك أنَّك مُوَلِّيه صَفْحةَ عُنُقِك، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على عَرضِ الشَّيءِ وجانبِه.

بَطْشًا: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ.

مَثَلُ الْأَوَّلِينَ: أي: ذِكرُ حالِهم، ووصْفُ عِقابِهم، وكيفيَّةُ إهلاكِهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ.

تفسير الآيات:

حم (1).

هذانِ الحَرفانِ اللَّذانِ افتُتِحَت بهما هذه السُّورةُ وغيرُها مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها.

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2).

أي: أُقسِمُ بالكِتابِ المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ.(4)

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3).

أي: إنَّا جعَلْنا القُرآنَ بلِسانٍ عَربيٍّ؛ لعلَّكم تَفهَمونَ مَعانيَه وتتدَبَّرونَه.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [يوسف: 2].

---

(4) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٣٢) أن قوله: ﴿المُبِين﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون مِن: أبان، الذي هو بمعنى: بان، أي: ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول.
الثاني: ويحتمل أن يكون مُعدًّى من: بان، فهذا لا بد له من مفعول، تقديره: المبين الهدى والشرع ونحوه.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4).

أي: وإنَّ القُرآنَ في اللَّوحِ المَحفوظِ عِندَنا ذو عُلُوٍّ في محلِّه وقَدْرِه وشَرَفِه، وذو حِكمةٍ وإحكامٍ؛ فلا يَعتَرِيه اختِلافٌ ولا اضطِرابٌ، وليس فيه نَقْصٌ، ولا لَبْسَ فيه ولا زَيْغ.[5]

كما قال تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود: 1].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: 77 - 80].

وقال عز وجل: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 21، 22].

وقال تبارك وتعالى: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ [عبس: 11 - 16].

---

(5) قال ابنُ القيم (٢/ ٤٣٦): «قوله: ﴿لدينا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة ﴿أُمّ الكتاب﴾، أي: أنه في الكتاب الذي عندنا. وهذا اختيار ابن عباس.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر؛ أنه عليّ حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف».

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5).

أي: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ[6] إعراضًا عنكم، ونُهمِلُكم فلا نأمُرَكم ولا نَنهاكم؛ مِن أجْلِ أنّكم –أيُّها المُشرِكونَ– قَومٌ مُعرِضونَ عن أمرِ اللهِ تعالى، مُجاوِزونَ له؟!

(6) اختُلف في المراد بالذِّكْر على قولين: الأول: أنّه ذِكْر العذاب، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن عذابكم ونترُكُكم على كفركم؟!.
الثاني: أنه القرآن، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن إنزال القرآن من أجل أنكم لا تؤمنون به؟!
ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٥٥٠) –مستندًا إلى السياق– القولَ الأول الذي قاله ابن عباس، والسُّدّيّ، ومجاهد، وأبو صالح، ومقاتل، فقال: «لأنّ الله –تبارك وتعالى– أتبَعَ ذلك خبرَه عن الأمم السالفة قبل الأُمَّة التي توعّدها بهذه الآية في تكذيبها رسلها، وما أحلّ بها مِن نقمته، ففي ذلك دليلٌ على أنّ قوله: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ وعيدٌ منه للمخاطبين به مِن أهل الشِّرك؛ إذ سلكوا في التكذيب بما جاءهم عن الله رسولهم مسلك الماضين قبلهم».
وقال ابنُ عطية (٧/ ٥٣٣ – ٥٣٤): «قوله تعالى: ﴿صَفْحًا﴾ انتصابه كانتصاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨]، فيحتمل أن يكون بمعنى: العفو والغفر للذنب، فكأنه يقول: أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفوًا عنكم وغفرًا لإجرامكم أن كنتم، أو من أجل أن كنتم قومًا مسرفين، هذا لا يصلح، وهذا قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل قوله: ﴿صَفْحًا﴾ أن يكون بمعنى: مغفولًا عنه، أي: نتركه يمرُّ لا تؤخذون بقوله ولا بتدبُّره ولا تُنَبهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر:
تمر الصبا صفحًا بساكن ذي الغضا ويصدع قلبي إن يهب هبوبها
أي: تمر مغفولًا عنها، فكأن هذا المعنى: أفنتركركم سدًى، وهذا هو منحى قتادة وغيره، ومن اللفظة قول كثير:
صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلة فمَن ملّ منها ذلك الوصل ملّت».

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ قِراءتانِ:

1- قراءةُ إِن بكسرِ الهمزةِ، وهي شرطيَّةٌ على معنى الاستِقبالِ، أي: إنْ تَكونوا مُسرِفِينَ نَضرِبْ عنكم الذِّكرَ.[7]

2- قراءةُ أَنْ بفتحِ الهمزةِ، والمعنى: بأنْ أسرَفْتُم. أو: لِأنْ أسرفْتُم.[8]

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6).

أي: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ الماضيةِ لِدَعوةِ أقوامِهم إلى الحَقِّ.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7).

أي: وفما يأتي نَبِيٌّ إلى قَومٍ إلَّا كانوا يَسخَرونَ منه!

---

(7) قرأ بها: نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (368/2).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (361/2)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 320)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 644)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (574/9).

(8) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (368/2).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (361/2)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 320)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 644)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (574/9).

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8).

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا.

أي: فأهلَكْنا أولئك المُستَهزِئينَ بالرُّسُلِ، ولم يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عَذابِ اللهِ، وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ مَكَّةَ المُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ - ﷺ -؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على باطِلِهم.

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ [ق: 36].

وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ.

أي: ووقَعَ إهلاكُ اللهِ للأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ تكذيبِهم رُسُلَهم، واستِهزائِهم بهم؛ فصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم، ومِثالًا يرتَدِعُ به غيرُهم؛ فلْيَحذَرْ كُفَّارُ هذه الأمَّةِ أن يَسيروا سِيرتَهم، ويَسلُكوا في الباطِلِ طَريقتَهم؛ فيُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم.

كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 40].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (9 – 14)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ
(14)

غريب الكلمات:

مَهْدًا: أي: مَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه.

سُبُلًا: أي: طُرُقًا، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ.

بِقَدَرٍ: أي: بمِقْدارٍ مَعْلومٍ، بِقَدْرِ حاجَتِكم إليه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه.

فَأَنْشَرْنَا: أي: أحْيَيْنا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه.

الْفُلْكِ: أي: السُّفُنِ، وواحدُه وجَمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولَعلَّ السُّفُنَ سُمِّيَتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

لِتَسْتَوُوا: أي: لِتَسْتَعلوا وتَستَقِرُّوا مُتَمَكِّنين، والاستِواءُ: الارتِفاعُ والعُلُوُّ على الشَّيءِ، والاستِقرارُ في العلوِّ.

سُبْحَانَ: اسْمٌ وُضِع مَوضِعَ المصدرِ، ومعناه: التَّنزيهُ والتَّقديسُ، والتَّبرئةُ للرَّبِّ -جلَّ ثناؤُه- مِن السُّوءِ والنَّقائصِ، وكلِّ ما لا يَليقُ بجلالِه، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ.

مُقْرِنِينَ: أي: مُطيقِينَ وضابِطِينَ، يُقالُ: فُلانٌ مُقرِنٌ لفُلانٍ، أي: ضابِطٌ له. وأقرَنتُ كذا، أي: أطَقْتُه. وأقرَنَ له، أي: أطاقَه وقَوِيَ عليه، كأنَّه صار له قِرْنًا. وقيل: مُماثِلينَ في القُوَّةِ، مِن قَولِهم: هو قِرنُ فُلانٍ: إذا كان مِثلَه في القُوَّةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

لَمُنْقَلِبُونَ: أي: راجِعونَ وصائِرونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

تفسير الآيات:

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9).

أي: ولَئِنْ قُلتَ للمُشركِينَ -يا محمَّدُ: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمواتِ السَّبْعَ وخَلَق الأرَضِينَ؟ لَيَقولُنَّ مِن فَورِهم: خلَقَهنَّ اللهُ وَحْدَه، العزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرُ الغالِبُ لِكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، العليمُ الَّذي لا يخفى عليه شَيءٌ.

ثُمَّ دلَّ على نفْسِه بذكرِ مَصنوعاتِه، فقال:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا.

أي: الَّذي جعَلَ لكم الأرضَ ثابتةً مُمهَّدةً، تتمَكَّنونَ فيها ممَّا تُريدونَ.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [البقرة: 22].

وقال سُبحانَه: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

وقال تبارك وتعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [النبأ: 6].

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أي: وجعَلَ لكم في الأرضِ طُرُقًا يسَّرَ لكم المَشيَ فيها؛ لعَلَّكم تهتدون بها.

كما قال تبارك وتعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا [نوح: 19، 20].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [الأنبياء: 31].

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11).

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ.

أي: والَّذي نزَّل مِن السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارِ حاجةِ النَّاسِ والنَّباتِ والأنعامِ؛ لِيَحصُلَ الانتِفاعُ به دونَ زيادةٍ مُهلِكةٍ، أو نُقصانٍ مُضِرٍّ.

كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ [الحجر: 21، 22].

وقال سُبحانَه: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [المؤمنون: 18].

فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا.

أي: فأحيَيْنا بالماءِ بَلدةً مُجدِبةً مُقفِرةً.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ [فاطر: 9].

كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ.

أي: كما أحيَيْنا بالماءِ الأرضَ الميْتةَ، وأخرَجْنا منها نَباتَها، كذلك يُحييكم اللهُ –أيُّها النَّاسُ– بعدَ مَوتِكم، فيُخرِجُكم يومَ القيامةِ مِن قُبورِكم.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعون. قالوا يا أبا هريرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ)).(9)

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12).

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا.

أي: واللهُ تعالى هو الَّذي خَلَقَ الأصنافَ جميعَها.

كما قال تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ [يس: 36].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات: 49].

---

(9) رواه البخاري (4935)، ومسلم (2955) واللفظ له.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ.

أي: وجَعَل لكم سُفُنًا تَركَبونَها في البَحرِ، وأنعامًا تَركَبونَها في البَرِّ؛ تَنقُلُكم إلى حيثُ أردتُم.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [غافر: 79، 80].

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13).

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ.

أي: لِتَستقِرُّوا مُتمَكِّنِينَ مُرتَفِعينَ على ظُهورِ الفُلْكِ والأنعامِ.

ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ.

أي: ثُمَّ تَذكُروا بقُلوبِكم -أيُّها النَّاسُ- نِعمةَ رَبِّكم بتيسيرِه لكم ما تَركبونَه في البَرِّ والبَحرِ، إذا استَقرَرْتُم عليه.

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا.

أي: وتقولوا بألسِنتِكم: تَنزَّهَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه؛ الَّذي ذَلَّل لنا هذا الَّذي نركَبُه مِن الفُلْكِ والأنعامِ.(10)

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71 – 73].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الجاثية: 12].

وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.

أي: وما كُنَّا لتلك المراكِبِ بمُطيقينَ ولا قادِرينَ على تَذليلِها ورُكوبِها وقِيادِها لولا أنَّ اللهَ سُبحانَه سَخَّرها لنا.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [يس: 71، 72].

---

(10) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٣٦) أن السُّنة للراكب إذا ركب أن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أو على النعمة بمحمد – رضي الله عنهما –، أو على النعمة في كل حال.

وساق هذا الأثر، ثم قال (٧/ ٥٣٧): «وإن قدّرنا أنّ ذكر النعمة هو بالقلب والتذكير بدأ الراكب بـــ ﴿سبحان الذي سخر﴾، وهو يرى نعمة الله في ذلك وفي سواه».

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14).

أي: وإنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ بعدَ مَوتِنا للحِسابِ والجَزاءِ.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ -كان إذا استوى على بَعيرِه خارجًا إلى سَفَرٍ، كبَّرَ ثلاثًا، ثمَّ قال: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفَرَنا هذا، واطْوِ عنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن وَعْثاءِ السَّفَرِ،[11] وكآبةِ المَنظَرِ، وسُوءِ المُنقَلَبِ في المالِ والأهلِ. وإذا رجَعَ قالَهُنَّ، وزاد فيهنَّ: آيِبونَ تائِبونَ عابِدونَ، لِرَبِّنا حامِدونَ)).[12]

وعن عليِّ بنِ رَبيعةَ، قال: ((شَهِدتُ عَليًّا أي: ابنَ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَركَبَها، فلمَّا وَضَع رِجْلَه في الرِّكابِ قال: باسمِ اللهِ، فلمَّا استوى على ظَهرِها قال: الحَمدُ للهِ، ثمَّ قال: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثمَّ قال: الحَمدُ للهِ -ثلاث مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: اللهُ أكبَرُ -ثلاث مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: سُبحانَك إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت. ثمَّ ضَحِكَ! فقيل: يا أميرَ المؤمنينَ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: رأيتُ النَّبيَّ - ﷺ - فعَل

---

(11) رواه البخاري (4935)، ومسلم (2955) واللفظ له.

(12) رواه مسلم (1342).

كما فعَلْتُ ثمَّ ضَحِكَ! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: إنَّ رَبَّك يَعجَبُ مِن عَبدِه إذا قال: اغفِرْ لي ذُنوبي، يَعلَمُ أنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غيري!)).[13]

(13) أخرجه أبو داود (2602) واللَّفظُ له، والترمذي (3446)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8800)، وأحمد (753).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ).
وصَحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (2698)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (2602)، وصَحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (280)، وابنُ القيِّم في ((صيغ الحمد)) (ص: 43)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (110/2)، وحسَّن الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (2602).

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (15–18)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ
بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)
أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

غريب الكلمات:

وَأَصْفَاكُمْ: أي: أخلَصَكم وخصَّكم، وأصلُ الصَّفاءِ: يدُلُّ على خُلوصِ الشَّيءِ.

كَظِيمٌ: أي: مُمتلئٌ حُزنًا وغَمًّا يُمسِكُ على حزنِه لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكِ الشَّيءِ وجَمعِه.

يُنَشَّأُ: أي: يُرَبَّى، والنُّشوءُ: التَّربيةُ، يُقالُ: نَشأتُ في بني فُلانٍ نَشْأً ونُشوءًا: إذا شَبَبتَ فيهم، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ.

الْحِلْيَةِ: الزِّينةِ والحُلِيّ، وأصلُ (حلو) هنا: تَحْسينُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15).

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا.

أي: وجَعَل المُشرِكونَ لله بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ!

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ.

أي: إنَّ الإنسانَ لَشَديدُ الجُحودِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها.

كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [العاديات: 6].

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16).

أي: أمِ اتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- وأنتم لا تَرضَونَهنَّ لأنفُسِكم، واختَصَّكم أنتم بالبَنينَ فجعَلَهم لكم؟!

كما قال تعالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ [النحل: 57].

وقال سُبحانَه: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ [النحل: 62].

وقال عزَّ وجلَّ: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [الصافات: 149 – 159].

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17).

أي: وإذا أُخبِرَ أحَدُ أولئك –الَّذين قالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ– بوِلادةِ امرأتِه لِما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظَلَّ وَجهُه أسوَدَ اللَّونِ، وهو مُمتَلِئٌ غيظًا؛ فهم يأنَفونَ مِن البَناتِ ويَكرهونَهنَّ، ومع ذلك يَنسُبونَهنَّ لله تعالى!

كما قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [النحل: 58 – 59].

وقال الله سُبحانَه: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى [النجم: 21، 22].

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18).

أي: أوَجَعَلوا ولدًا لله مَن شأنُه أنْ يُرَبَّى في الزِّينةِ،(14) وإذا خُوصِم لا يَقدِرُ على إقامةِ حُجَّتِه، ودفْعِ ما يُجادِلُه به خَصْمُه لِنُقصانِ عقلِه، وضَعفِ رأْيِه!

(14) اختُلف في المراد بـ ﴿مَن﴾ على قولين: الأول: النساء والجواري.

الثاني: الأصنام.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٥٦٥) -مستندًا إلى السياق- القول الأول الذي قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسُّدّيّ، ومقاتل، فقال: «لأنّ ذلك عقيب خبر الله عن إضافة المشركين إليه ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وقلّة معرفتهم بحقّه، ونُحلتهم إياه مِن الصفات والنِّحَل، وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم، والمنعم عليهم النِّعَم التي عدّدها في أول هذه السورة -ما لا يرضونه لأنفسهم-؛ فإتباع ذلك مِن الكلام ما كان نظيرًا له أشبه وأولى مِن إتباعه ما لم يجْرِ له ذِكر».

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (19–25)

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ
(19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ
بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

غريب الكلمات:

يَخْرُصُونَ: أي: يَكذِبونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي (إعمالُ الظَّنِّ) فيما لا تَستيقِنُه، ومنه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ خَرْصًا: إذا حَزَرْتَه؛ لأنَّ الحَزْرَ فيه ظَنٌّ لا إحاطةٌ، ثمَّ قيلَ للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ.

أُمَّةٍ: أي: دِينٍ ومِلَّةٍ، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقومِ يجتمعونَ على دِينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجُلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لِكلِّ ما كان أصلًا لوُجودِ شَيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ.

آثَارِهِمْ: أي: خُطاهم، وما استَنَّ به بَعدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي.

مُتْرَفُوهَا: أي: أغنياؤُها ورُؤساؤُها المُنعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ.

عَاقِبَةُ: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ وإتيانُه بعدَ غيرِه.

تفسير الآيات:

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19).

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا.

أي: واعتقد كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ -الَّذين هم عِبادٌ لله- إناثًا.

كما قال الله تعالى: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا [الإسراء: 40].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [النجم: 27، 28].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ عِندَ أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِندَه يُسَبِّحونَه ويُقَدِّسونَه إناثًا.(15)

2- قِراءةُ عِبادُ جَمعُ عَبدٍ، أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِبادٌ له إناثًا.(16)

أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ.

أي: فهل حَضَر أولئك المُشرِكونَ خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ وشاهَدوه فعرَفوا أنَّهم إناثٌ؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ [الصافات: 150].

سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ.

أي: ستُكتَبُ شَهادةُ أولئك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ في الدُّنيا، ويُسألونَ في الآخِرةِ عن شَهادتِهم تلك الَّتي ليس لهم عليها بُرهانٌ، ويُعاقَبونَ على افتِرائِهم هذا.

---

(15) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (368/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (566/20)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 320).
(16) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (368/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (567/20)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 320).
قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أنَّهما قِراءتانِ مَعروفتانِ في قَرَأةِ الأمصارِ، صحيحتَا المعنى، فبِأيَّتِهما قرأ القارئُ فمُصيبٌ؛ وذلك أنَّ الملائكةَ عِبادُ اللهِ وعِندَه).
((تفسير ابن جرير)) (567/20).

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20).

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ.

أي: وقال المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم، ولَصرَفَنا عن ذلك، فترْكُه إيَّانا دَليلٌ على رِضاه مِنَّا بعِبادتِهم، وأنَّه حقٌّ لا اعتِراضَ عليه.

كما قال تعالى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا [الأنعام: 148].

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ.

أي: ليس للمُشركِينَ عِلمٌ بصِحَّةِ ما قالوه واحتَجُّوا به.

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.

أي: إنَّما يَقولونَ ذلك كَذِبًا وظَنًّا منهم بلا دَليلٍ ولا بُرهانٍ.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21).

أي: فهل أعطَيْنا أولئك المُتخرِّصينَ كِتابًا يُثبِتُ صِحَّةَ دَعواهم مِن قَبلِ نُزولِ هذا القُرآنِ، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ، وعلى العَمَلِ به ثابِتونَ؟!

كما قال تعالى: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ [الروم: 35].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ [فاطر: 40].

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22).

أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس لهم مُستَنَدٌ على صِحَّةِ دَعواهم، وإنَّما حُجَّتُهم الباطِلةُ هي تقليدُ آبائِهم، فيقولونَ: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتقَدِ، ونحن لهم مُتَّبِعون.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23).

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ.

أي: وكما فَعَل مُشرِكو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحَمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم إلَّا قال رُؤساؤُهم وكُبَراؤُهم المُنعَّمونَ الَّذين أطْغَتْهم الدُّنيا: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على دِينٍ غيرِ الَّذي تَدْعونا إليه.

وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ.

أي: وإنَّا مُتَّبِعونَ لِطَريقتِهم، ولازِمونَ لها، فلا ننحَرِفُ عنها.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24).

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ.

أي: قال الرَّسولُ لِقَومِه المُشرِكينَ المُتمَسِّكينَ بتقليدِ آبائِهم: أتَتَّبِعونَ آباءَكم على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بدِينٍ أهدى إلى الحَقِّ مِن الدِّينِ الَّذي وجَدْتُم عليه آباءَكم؟!

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ قَالَ على الخبَرِ، قيل: المرادُ: قال كُلُّ نَذيرٍ لِقَومِه. وقيل: المرادُ: قال محمَّدٌ - ﷺ - لِقَومِه.[17]

2- قِراءةُ قُلْ على الأمرِ، قيل: المرادُ: قُلْنا للنَّذيرِ: قُلْ لِقَومِك. وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك.[18]

(17) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/369).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/363)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 648)، ((تفسير ابن عطية)) (5/51)، ((تفسير الشوكاني)) (4/632)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/100).

(18) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/369).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/363)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 649)، ((تفسير ابن عطية)) (5/51)، ((تفسير الشوكاني)) (4/632)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/100).

قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

أي: قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به جاحِدونَ مُنكِرونَ، وعلى دِينِ آبائِنا ثابِتونَ، وله وَحْدَه مُتَّبِعون.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25).

أي: فعاقَبْناهم، فانظُرْ -يا مُحَمَّدُ- كيف صار آخِرُ أمرِهم إلى هَلاكٍ وبَوارٍ!

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا [الروم: 47].

وقال سُبحانَه: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [آل عمران: 137].

وقال تعالى: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [الأنعام: 10، 11].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (26-32)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
(27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى
جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30)
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

غريب الكلمات:

بَرَاءٌ: أي: بريءٌ، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتبَرِّي: التَّفصِّي مما يُكرهُ مُجاوَرتُه، وأصلُ (برأ) هنا: التَّباعُدُ مِن الشَّيءِ ومُزايَلَتُه.

فَطَرَنِي: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه.

عَقِبِهِ: العَقِبُ: الذُّرِّيَّةُ ووَلَدُ الوَلَدِ ما امتَدَّ فَرعُهم، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه.

مَتَّعْتُ: أي: أبقيتُ وعَمَّرْتُ. والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ.

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا: أي: لِيَخدُمَ بعضُهم بعضًا، ويعمَلَ بعضُهم لبعضٍ، مِن التَّسخيرِ، وهو: التَّهيئةُ. وقيل: هو سياقةُ الشَّيءِ إلى الغرضِ المختصِّ به قهرًا، والسُّخْرِيُّ: هو الَّذى يُقهَرُ فيَتسَخَّرُ بإرادتِه، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26).

أي: واذكُرْ –يا مُحمَّدُ– حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكينَ: إنَّني بَريءٌ مِنَ الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ، فأُبغِضُها ولا أعبُدُها.

كما قال الله تبارك وتعالى: فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 78، 79].

وقال سُبحانَه: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ [الممتحنة: 4].

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27).

أي: أنا بَريءٌ مِنَ الَّذين تَعبُدونَهم إلَّا الَّذي خلَقَني،(19) فهو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ، فأنا أعبُدُه ولا أتبرَّأُ منه؛ فإنَّه سيُرشِدُني ويُوَفِّقُني للحَقّ.

(19) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٤٢) أن فرقة قالت: قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الاستثناء متصل، وكانوا يعرفون الله ويعظّمونه، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكأن إبراهيم قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر.

كما قال تعالى: قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [الشعراء: 75 – 78].

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28).

أي: وجعَل إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ كَلِمةً باقيةً في ذُرِّيَّتِه؛[20] رجاءَ أن يَرجِعوا إلى الحَقِّ.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [البقرة: 131، 132].

وقال سُبحانَه حكايةً لِقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [يوسف: 38].

ثم ذكر قولًا آخر، فقال: «وقالت فرقة: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن الذي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله لا قليلًا ولا كثيرًا».

(20) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٤٣) أن الضـــمير في قوله: ﴿وجعلها﴾ عائد على كلمة التوحيد –على هذا القول الذي قاله ابن عباس، وعكرمة من طريق ليث، ومجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، ومقاتل–، ثم علَّق بقوله: «وعاد الضمير عليها وإن كانت لم يجرِ لها ذكر؛ لأنّ اللفظ يتضمنها».

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29).

أي: لم يَحصُلْ ما رجاه إبراهيمُ مِن رُجوعِ جَميعِ عَقِبِه إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ الَّتي جعَلَها فيهم -ومنهم كُفَّارُ قُرَيشٍ وآباؤُهم مِن قَبلِهم-؛ فقد مَتَّع اللهُ هؤلاء القَومَ، فأسبَغَ عليهم مِنَ النِّعَمِ، وعافاهم مِن العُقوباتِ والنِّقَمِ؛ فأبطَرَهم ذلك وزهَّدَهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وتمادَوا في باطِلِهم حتَّى جاءَهم القُرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وجاءهم مِنَ الله تعالى رَسولٌ ظاهِرٌ أمرُه، ومُبَيِّنٌ لرسالتِه وأحكامِ دينِه، مُظهِرٌ للحَقِّ وحُجَجِه، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30).

أي: ولَمَّا جاء القُرآنُ إلى المُشرِكينَ قالوا: هذا سِحرٌ يَسحَرُ محمَّدٌ به النَّاسَ، ولن نُؤمِنَ به!

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31).

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ أيضًا اعتِراضًا منهم على إنزالِ القُرآنِ على مُحَمَّدٍ - ﷺ -: إنْ كان هذا القُرآنُ حَقًّا فِلمَ لمْ يُنزَّلْ على رَجُلٍ مِن وُجهاءِ وأغنياءِ مَكَّةَ أو الطَّائِفِ؟[21]

(21) اختُلف في عظيم مكة على قولين: أحدهما: أنه الوليد بن المغيرة.

الثاني: عُتبة بن ربيعة.

وأما عظيم الطائف ففيه أقوال: الأول: أنه حبيب بن عمر الثَّقفي.

الثاني: عمير بن عبد ياليل الثقفي.

الثالث: عروة بن مسعود.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32).

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ.

أي: هل هؤلاء المُشرِكونَ المُقترِحونَ إنزالَ القُرآنِ على رَجُلٍ عَظيمٍ مِن القَريتَينِ هم مَن يَضَعونَ النُّبوَّةَ وإنزالَ الوَحيِ حيث شاؤُوا، أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختَصُّ بذلك؟!

كما قال تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: 124].

وقال سُبحانَه: وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [القصص: 86].

الرابع: أنه كنانة بن عبد بن عمرو.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٥٨٢ - ٥٨٣) العموم فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال -جل ثناؤه- مخبرًا عن هؤلاء المشركين: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ إذ كان جائزًا أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله -تبارك وتعالى- لنا الدلالةَ على الذين عُنوا منهم في كتابه، ولا على لسان رسوله - ﷺ -».

وساق ابنُ عطية (٧/ ٥٤٤) الأقوال، ثم علَّق بقوله: «وإنما قصدوا إلى مَن عظُم ذكره بالسِّنّ والقِدم، وإلا فرسول الله - ﷺ - كان حينئذٍ أعظمَ مِن هؤلاء، لكن لما عظُم أولئك قبل مدة النبي - ﷺ - وفي صباه استمر ذلك لهم».

وساق ابنُ كثير (١٢/ ٣١٠) الأقوال، ثم علَّق بقوله: «والظاهر: أنّ مرادهم رجلٌ كبيرٌ مِن أي البلدتين كان».

نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: نحن تولَّيْنا قِسمةَ الأرزاقِ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا؛ فيَبسُطُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه وتعالى.

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ.

أي: ورفَعْنا في الدُّنيا بَعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ؛ فمنهم الغَنيُّ والفَقيرُ، وغَيرُ ذلك.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ [النحل: 71].

وقال سُبحانَه: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ [الإسراء: 21].

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا.

أي: لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بَعضَهم مِن بعضٍ، فكما تولَّيْنا قَسْمَ مَعايشِهم، وفضَّلْنا بعضَهم على بَعضٍ، ولم يكُنْ أمرُ الدُّنيا إليهم؛ فكذلك لم يُفَوِّضِ اللهُ تعالى إليهم أمرَ النُّبُوَّةِ؛ فهو وَحْدَه مَن يَصطفي مَن يَشاءُ لِرسالتِه ونُزولِ الوَحيِ عليه؛ فلا وَجهَ لاعتراضِهم.(22)

(22) اختُلف في معنى قوله: ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريًّا﴾ على قولين: الأول: ليستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم، فيلتَئِم قِوامَ العالم.

الثاني: ليملك بعضُهم بعضًا.

وذكر ابنُ كثير (١٢/ ٣١٠) أن القول الثاني الذي قاله قتادة، ومقاتل، والضَّحَّاك راجع إلى الأول.

وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ.

أي: ورحمةُ ربِّك -يا محمَّدُ- خيرٌ ممَّا يجمَعُه المُشرِكون في الدُّنيا مِن أموالِها الفانيةِ ومَتاعِها الزَّائِلِ!

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: 57، 58].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (33-35)

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

غريب الكلمات:

وَمَعَارِجَ: أي: مَراقيَ وسَلالِمَ، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ.

يَظْهَرُونَ: أي: يَعْلُونَ ويَصعَدونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

وَزُخْرُفًا: أي: ذَهَبًا، أو: الزُّخرفُ: الزِّينةُ، قيل: أصلُ معنى الزُّخرفِ: الذَّهبُ، ولَمَّا كان حَسنًا في الأعيُنِ قيل لكلِّ زينةٍ: زخرفةٌ، ثم جعلوا كلَّ مُزيَّنٍ: مزخْرفًا، وقيل: أصلُ الزُّخرفِ: الزِّينةُ المُزَوَّقةُ، ومنه قيل للذَّهبِ: زُخرفٌ؛ لِكَونِ كمالِ الزِّينةِ بالذَّهبِ.

مَتَاعُ: المتاعُ: المنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتِفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ.

تفسير الآيات:

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33).

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ.

أي: ولولا كراهَتُنا أن يَرغَبَ النَّاسُ في الكُفرِ إذا رأَوْا ما أُوتيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ وقُدرةٍ، فيَصيروا كُلُّهم كُفَّارًا؛ لجَعَل اللهُ للَّذين يَكفُرونَ به بُيُوتًا ذاتَ سُقُفٍ مِن فِضَّةٍ.

وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ.

أي: ومَصاعِدَ ومَراقيَ يَرتَفِعونَ بها.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34).

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا.

أي: ولجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا.

وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ.

أي: ولجَعَل لهم أَسِرَّةً يتَّكِئُونَ عليها.

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35).

وَزُخْرُفًا.

أي: وذَهَبًا؛ فلولا يَعتقِدُ النَّاسُ أنَّهم ينالُونَ ذلك بالكُفرِ، فيَكفُرون جَميعًا؛ رغبةً منهم في الدُّنيا، لجَعلَه اللهُ تعالى للكافِرينَ به.[23]

وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: وما كُلُّ تلك الأشياءِ المذكورةِ إلَّا عَرَضٌ دُنيويٌّ زائِلٌ لا يَبقَى.

كما قال تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14].

وقال سُبحانَه: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ [القصص: 60].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ)).

---

(23) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٤٦) أن فرقة قالت: الزخرف: التزاويق والنّقش ونحوه من التزيين.
وعلّق عليه بقوله: «وشاهد هذا القول: ﴿حتّى إذا أخذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]».

وَالْآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ.

أي: وأمَّا نَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبّك -يا محمَّدُ- فهو خاصٌّ بالَّذين امتَثَلوا ما أمرَ اللهُ به مِن التَّوحيدِ والطَّاعاتِ، واجتَنَبوا ما نَهَى عنه مِنَ الشّركِ والسَّيِّئاتِ.

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (36-39)

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ
الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
(39)

غريب الكلمات:

يَعْشُ: أي: يَعْمَ ويُعْرِضْ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ.

نُقَيِّضْ: أي: نُهَيِّئْ ونُسَبِّبْ، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له.

قَرِينٌ: أي: صاحِبٌ مُلازِمٌ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

فَبِئْسَ: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مُستوفيةٌ لجميعِه.

تفسير الآيات:

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36).

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شيطانًا؛ جزاءَ إعراضِه عنه.[24]

قال تعالى: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [فصلت: 25].

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

أي: فيَصيرُ الشَّيطانُ قَرينًا له لا يُفارِقُه.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

وقال سُبحانَه: قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [ق: 27].

---

(24) اختُلف في معنى قوله: ﴿يعش﴾ على قولين: الأول: يعرض.

الثاني: يعمى.

ووجَّه ابنُ تيمية (٥/ ٥٢٣) القول الأول الذي قاله قتادة، والسُّدّيّ، فقال: «وهذا صحيح من جهة المعنى؛ فإن قوله: ﴿يعش﴾ ضُمِّن معنى: يُعْرِض، ولهذا عُدِّي بحرف الجار ﴿عن﴾، كما يقال: أنت أعمى عن محاسن فلان، إذا أعرضت فلم تنظر إليها، فقوله: ﴿يعش﴾ أي: يكن أعشى عنها، وهو دون العمى، فلم ينظر إليها إلا نظرًا ضعيفًا».

وذكر ابنُ جرير (٢٠/ ٥٩٦) أنّ مَن تأول ﴿يعش﴾ بـ «يعْم» فإنه وجب أن تكون قراءته: (ومَن يَعْشَ) بفتح الشين.

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37).

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ.

أي: وإنَّ الشَّياطينَ لَيمنَعونَهم مِن طَريقِ الحقِّ الموصِلِ إلى اللهِ تعالى وإلى جنَّتِه، ويَصرِفونَهم عنه.

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ.

أي: ومع ذلك يَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ هؤلاء أنَّهم على الحقِّ والصَّوابِ!

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38).

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ.

أي: حتَّى إذا جاءَنا يومَ القيامةِ هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ، قال لِقَرينِه الشَّيطانِ: وَدِدتُ أنَّ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ.

كما قال الله تعالى: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27 – 29].

وقال سُبحانَه وتعالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف: 67].

فَبِئْسَ الْقَرِينُ.

أي: فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت -أيُّها الشَّيطانُ!

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39).

أي: يُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العذابَ في هذا اليَومِ -بسببِ ظُلمِكم - اشتِراكُكُم في هذا العذابِ.

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (40-45)

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

تفسير الآيات:

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40).

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ.

أي: لا تَستطيعُ –يا مُحَمَّدُ– أن تجعَلَ الكُفَّارَ يَنتَفِعونَ بالسَّماعِ منك؛ فليس ذلك إليك.

كما قال الله تعالى: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [النمل: 80].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 21 – 23].

أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ.

أي: ولا تَستطيعُ –يا مُحَمَّدُ– أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن أعمَى اللهُ قَلْبَه عن رُؤيةِ هذا الحَقّ.

كما قال تعالى: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ [النمل: 81].

وقال سُبحانَه: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: ولا تَستطيعُ أن تَهديَ مَن هو في ضَلالٍ ظاهِرٍ عن طَريقِ الهُدى.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41).

أي: فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِك -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترَى عذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم بعدَ فِراقِك لا مَحالةَ.

أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42).

أي: وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العَذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم، فلن يُعجِزونا، أو يُفلِتوا مِنَّا.[25]

كما قال تعالى: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40].

وقال سُبحانَه: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [غافر: 77].

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43).

---

(25) اختُلف في المتَوَعَّدين في الآية على قولين: الأول: أنهم الكفار، وأن الله أرى نبيّه ذلك فيهم.

الثاني: أهل الإسلام.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٦٠١) -مستندًا إلى السياق- القولَ الأول الذي قاله السُّدّيّ، ومقاتل، فقال: «وذلك أن ذلك في سياق خبر الله عن المشركين؛ فلأن يكون ذلك تهديدًا لهم أولى مِن أن يكون وعيدًا لِمَن لم يجرِ له ذكر».

وكذا رجّحه ابنُ عطية (٧/ ٥٥٠) -مستندًا إلى الأكثر- بقوله: «والقول الأول في توعُّد الكفار أكثر».

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ.

أي: فتمَسَّكْ –يا مُحمَّدُ– بقُوَّةٍ بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك، واثبُتْ على العَمَلِ به.

إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصلٍ إلى اللهِ تعالى ورِضوانِه وجَنَّتِه.

كما قال تعالى: إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ [النمل: 79].

وقال سُبحانَه: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [يس: 3، 4].

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44).

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَشَرفٌ لك –يا مُحمَّدُ– ولِقَومِك مِن قُرَيشٍ وسائِرِ العَرَبِ، وهو مَوعِظةٌ وتَذكيرٌ لكم.(26)

---

(26) في ﴿لَذِكْرٌ﴾ قولان: أحدهما: الشرف.
الثاني: أنه لذكر لك ولقومك تذكرون به أمر الدين وتعملون به.
ونسبه ابنُ عطية (٧/ ٥٥٠ – ٥٥١) للحسن بن أبي الحسن، وذكر أنّ الآية تحتمل القولين، وأنّ «القوم» –على القول الأول– : قريش، ثم العرب، وعلى الثاني: أمته بأجمعها.
ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ٥٢٦) القول الثاني، وذكر أنه أصح القولين.
وانتقد الأول الذي قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسُّدّيّ، وابن زيد، ومقاتل، ومجاهد، مستندًا إلى ظاهر الآية، والدلالة العقلية، فقال: «وليس بشيء؛ فإنّ القرآن هو شرفٌ لِمَن آمن به مِن قومه وغيرهم، وليس شرفًا لجميع قومه، بل مَن كذّب

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنبياء: 10].

وقال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ.

أي: وسوفَ يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ.(27)

عن أبي مالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((القُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك)).(28)

به منهم كان أحقّ بالذّم كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالى: ﴿وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ الحَقّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، بخلاف كونه تذكرة وذكرى؛ فإنّه تذكرة لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لا أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْرًا إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فعمّ العالمين جميعهم، فقال: ﴿وما تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِن أجْرٍ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾».

(27) المراد بقوله: ﴿وسوف تسئلون﴾ أي: عمَّن يكذّب به في الآخرة، وذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٥٢) قولين آخرين: الأول: أنّ معناه: عن أوامر القرآن ونواهيه.

ونسبه لابن عباس.

الثاني: أن المعنى: عن شكر النعمة فيه.

ونسبه للحسن بن أبي الحسن.

ثم علَّق بقوله: «واللفظ يحتمل هذا كله ويعمّه».

(28) رواه مسلم (223).

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45).

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا.

أي: واسألْ –يا مُحَمَّدُ– الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك.[29]

---

(29) اختُلف في الذين أُمِر بمسألتهم رسول الله – ﷺ – في قوله: ﴿وسْئَلْ مَن أرْسَلْنا﴾ على قولين: الأول: أنهم مؤمنو أهل الكتابين: التوراة، والإنجيل.

الثاني: أنهم الأنبياء الذين جُمعوا له ليلة أسري به ببيت المقدس.

وعلّق ابنُ عطية (٧/ ٥٥١) على القول الأول الذي قاله ابن عباس من طريق أبي صالح، ومجاهد، والسُّدّيّ، وقتادة، والضحاك، وعطاء، والحسن، والمقاتلان بقوله: «لأنّ المفهوم أنه لا سبيل إلى سؤاله الرسل إلا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها، وفي قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: (وسْئَلِ الَّذِينَ أرْسَلْنا إلَيْهِمْ رُسُلَنا)، فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى.

وكذلك قوله: ﴿وسئل القرية﴾ [يوسف: ٨٢] مفهوم أنه لا يسأل إلا أهلها، ومما ينظر الى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩]، فمفهوم أن الردّ إنما هو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأن المحاورة في ذلك إنما هو لتبّاعهم وحفظة الشرع».

وبنحوه قال ابنُ جرير (٢٠/ ٦٠٦).

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٦٠٦) القول الأول، فقال: «وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: عني به: سل مؤمني أهل الكتابين».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر ابنُ عطية أن فرقة قالت: أراد: أن اسأل جبريل.

وانتقده بقوله: «وفيه بُعد».

ونقل أن فرقة قالت: أراد: واسألني، أو واسألنا عمّن أرسلنا.

وعلَّق عليه بقوله: «والأَولى –على هذا التأويل– أن يكون: ﴿مَن أرْسَلْنا﴾ استفهامًا أمره أن يسأل به، كأن سؤاله: يا رب، مَن أرسلت قبلي من رسلك؟ أجعلت في رسالته الأمر بآلهة يعبدون؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى، فردّ المخاطبة إلى محمد – ﷺ – في قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾».

وساق ابنُ القيم (٢/ ٤٣٨ – ٤٣٩) القولين، ثم علق بقوله: «وعلى كل تقدير فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسلًا، أو أنزل كتابًا، أو حرّم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صِحَّة رسالته – ﷺ –».

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله – ﷺ –: «أتاني مَلَك، فقال: يا محمد، ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾ على ما بُعثوا؟ قال: قلتُ: على ما بُعِثوا؟ قال: على ولايتك، وولاية علي بن أبي طالب»

أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٩٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٢٤١، والثعلبي ٨/ ٣٣٧ – ٣٣٨.

قال الحاكم: «تفرّد به علي بن جابر، عن محمد بن خالد، عن محمد بن فضـــيل، ولم نكتبه إلا عن ابن مظفر، وهو عندنا حافظ ثقة مأمون».

قال ابن عراق في تنزيه الشـــريعة ١/ ٣٩٧ (١٤٧): «لم يبين علّته، وقد أورده الحافظ ابن حجر في زهر الفردوس من جهة الحاكم، ثم قال: ورواه أبو نعيم، وقال: تفرّد به علي بن جابر عن محمد بن فضيل».

وقال الألباني في الضعيفة ١٠/ ٥٠١ (٤٨٨٤): «موضوع».

انتقد ابنُ تيمية في منهاج الســـنة النبوية (٧/ ١٦٨ – ١٧٠) هذا الأثر مســـتندًا إلى الإجماع، وظاهر الآية، وأحوال النزول، والأدلة العقلية، والتاريخية، فقال –بتصرف–: «والجواب من وجوه:...

الوجه الثاني: أن مثل هذا مما اتفق أهل العلم على أنه كذب موضوع.

الوجه الثالث: أن هذا مما يعلم من له علم ودين أنه من الكذب الباطل الذي لا يصـــدق به مَن له عقل ودين، وإنما يختلق مثل هذا أهل الوقاحة والجراءة في الكذب، فإن الرسل –صلوات الله عليهم–كيف يسألون عمّا لا يدخل في أصل الإيمان؟ وقد أجمع المســـلمون على أنّ الرجل لو آمن بالنبي – ﷺ – وأطاعه، ومات في حياته قبل أن يعلم أنّ الله خلق أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا لم يضره ذلك شيئًا، ولم يمنعه ذلك مِن دخول الجنة.

فإذا كان هذا في أمة محمد – ﷺ – فكيف يُقال: إن الأنبياء يجب عليهم الإيمان بواحد من الصـــحابة؟! والله تعالى قد أخذ الميثاق عليهم لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

هكذا قال ابن عباس وغيره، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رســـول﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١] فأما الإيمان بتفصـــيل ما بعث به محمد فلم يؤخذ عليهم، فكيف يُؤخَذ عليهم موالاة واحد من الصـــحابة دون غيره من المؤمنين؟!.الرابع: أن لفظ الآية: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ ليس في هذا سؤال لهم بماذا بعثوا.

الخامس: أن قول القائل: إنهم بعثوا بهذه الثلاثة.

إن أراد أنهم لم يبعثوا إلا بها فهذا كذب على الرسـل، وإن أراد أنها أصـول ما بعثوا به فهذا أيضًـا كذِب، فإن أصـول الدين التي بعثوا بها: من الإيمان بالله واليوم الآخر، وأصـول الشـرائع، أهم عندهم من ذكر الإيمان بواحدٍ مِن أصـحاب نبي غيرهم، بل ومن الإقرار بنبوة محمد – ﷺ –، فإن الإقرار بمحمد يجب عليهم مجملًا، كما يجب علينا نحن الإقرار بنبواتهم مجملًا، لكن مَن أدركه منهم وجب عليه الإيمان بشرعه على التفصيل كما يجب علينا.

وأما الإيمان بشرائع الأنبياء على التفصيل فهو واجب على أممهم، فكيف يتركون ذكر ما هو واجب على أممهم ويذكرون ما ليس هو الأوجب؟!.الوجه السادس: أن ليلة الإسراء كانت بمكة قبل الهجرة بمدة؛ قيل: إنها سنة ونصف.

كما قال تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ [يونس: 94].

وقال سُبحانَه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 25].

أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

أي: اسأَلْهم هل شرَعْنا وأمَرْنا بعبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ الرَّحمنِ؟!

سورةُ الزُّخرُفِ

وقيل: إنها خمس سنين.

وقيل غير ذلك.

وكان عليٌّ صغيرًا ليلة المعراج، لم يحصل له هجرة ولا جهاد ولا أمر يوجب أن يذكره به الأنبياء.

والأنبياء لم يكن يُذكر عليٌّ في كتبهم أصلًا، وهذه كتب الأنبياء الموجودة التي أخرج الناس ما فيها من ذكر النبي – ﷺ – ليس في شيء منها ذكر عليٍّ، بل ذكروا أن في التابوت الذي كان فيه عند المقوقس صور الأنبياء صورةَ أبي بكر وعمر مع صورة النبي – ﷺ – وأنه بهما يقيم الله أمره.

وهؤلاء الذين أسلموا من أهل الكتاب لم يذكر أحد منهم أنه ذُكر عليٌّ عندهم، فكيف يجوز أن يقال: إن كلًّا مِن الأنبياء بُعِثوا بالإقرار بولاية علي، ولم يذكروا ذلك لأممهم، ولا نقله أحد منهم؟»».

الآيات (46–50)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

غريب الكلمات:

وَمَلَئِهِ: الملأُ: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، والجماعةُ يَجتمِعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ العُيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤونَ، أي: يَتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ.

يَنْكُثُونَ: يَنقُضونَ عَهدَهم، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ [الإسراء: 101].

فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِنَ الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المدَبِّرِ لجَميعِ العالَمينَ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآَيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47).

أي: فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها؛ سُخْريةً واستِهزاءً!

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48).

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا.

أي: وما نُرِي فِرعَونَ وقومَه مُعجِزةً إلَّا هي أعظَمُ مِن الَّتي قَبْلَها، ومع ذلك كذَّبوا بجَميعِ الآياتِ واستَخَفُّوا بها؛ استِكبارًا وعِنادًا![30]

وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

أي: وابتَلَيْناهم بنِقَمٍ ومِحَنٍ -كالقَحطِ ونَقصِ الثَّمراتِ-؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى الله، فيَرجِعونَ مِن كُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، إلى توحيدِه وطاعتِه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [الأعراف: 130].

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49).

---

(30) قال ابنُ عطية (٧/ ٥٥٣): «قوله: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِن أُخْتِهَا﴾ عبارة عن شِدّة موقعها في نفوسهم بجِدّة أمرها وحدوثه، وذلك أنّ أول آية عرضها موسى هي: العصا واليد، وكانت أكبر آية، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر؛ لأنهم قد كانوا أُنسُوا التي قبلها، فهذا كما قال الشاعر:

على أنها تعفو الكلوم وإنما تُوكّل بالأدنى وإن جل ما يقضى».

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ.

أي: وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ ادعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندَك؛ لِيَكشِفَ عنَّا العَذابَ.[31]

إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ.

أي: إنَّنا لَمُتَّبِعوك -يا موسى- إنْ كَشَف رَبُّك عنَّا العذابَ، فنُؤمِنُ به ونُوَحِّدُه!

كما قال تعالى: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ

---

(31) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٥٣) أن قوله تعالى: ﴿وقالُوا يا أيُّها السّاحِرُ﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحرة؛ فيكون قوله استهزاء، وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: ﴿عِنْدَكَ﴾ بمعنى: في زعمك وعلى قولك.

الثاني: أن يكون القائل ليس من المتمردين الحذّاق منهم، ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين: إمّا لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت، فكأنه قال: يا أيه العالِم.

وإما لأنّ هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى - عليه السلام - لأول ظهوره، فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة، ويكون القول -على هذا التأويل- جدًّا من القائل، ويكون قوله: ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى: إن نفعتنا دعوتك.

ثم رجَّح (٧/ ٥٥٣ - ٥٥٤ بتصرف) الاحتمال الثاني مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا التأويل أرجح، أعني: أن كلام هذا القائل مقترن بالجدّ.

ثم أخبر عنهم أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلًا مِن أوله لما وقع نكث».

الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الأعراف: 132 – 134].

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50).

أي: فلمَّا رفَعْنا العذابَ عن فِرعَونَ وقَومِه؛ لِيَهتَدوا إلى الحَقِّ كما وَعَدوا موسى، نَكَثوا فنَقَضوا عَهْدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم وضَلالِهم!

كما قال تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [الأعراف: 135].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (51–56)

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)

غريب الكلمات:

مَهِينٌ: أي: ضَعيفٌ ذَليلٌ، وأصلُ (هون) هنا: يدُلُّ على احتقارٍ.

أَسْوِرَةٌ: جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: حَلْقةٌ عريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسغِ، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ.

مُقْتَرِنِينَ: أي: مُتَتابِعينَ، يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا، يَشهَدونَ له بصِدقِه، ويُعينونَه على أمْرِه، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ: أي: أزعَجَهم، وحَمَلَهم على الخِفَّةِ والجَهلِ بكَيدِه وغُرورِه، يقالُ: استخَفَّه عن رأيِه: إذا حمَلَه على الجَهلِ، وأزالَه عن الصَّوابِ، وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ.

آسَفُونَا: أي أغضَبونا، والأَسَفُ يكونُ على وَجهَينِ: الغَضَبِ، والحُزنِ، وأصلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أشْبَهَ ذلك.

سَلَفًا: أي: مُتَقَدِّمينَ لِيَتَّعِظَ بهم الآخِرونَ، جَمعُ سالفٍ، مِثلُ: حارِسٍ وحَرَسٍ، يُقالُ: سَلَف يَسلُفُ: إذا تقَدَّم ومَضى، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ وسَبْقٍ.

وَمَثَلًا: أي: عِبرةً وعِظةً تجري مَجرى المَثَلِ لِمَن بَقِيَ بَعْدَهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51).

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ.

أي: ونادى فِرعَونُ في قَومِه القِبطِ مُفتَخِرًا مُتبَجِّحًا، فقال: يا قَومِ أليس لي وَحْدي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، لا يُنازِعُني أحَدٌ في التَّصَرُّفِ فيها؟![32]

وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي.

أي: وهذه الأنهارُ المتفَرِّعةُ مِن نَهرِ النِّيلِ تجري بيْنَ يَدَيَّ في البَساتينِ والقُصورِ وغَيرِها؟!

أَفَلَا تُبْصِرُونَ.

أي: أفلا تُبصِرونَ -يا قَومِ- ما أنا فيه مِنَ المُلْكِ والعَظَمةِ، والقُوَّةِ والنَّعيمِ؟!

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52).

---

(32) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٥٤) أن نداء فرعون يحتمل أن يكون بلســـانه في ناديه، ويحتمل أن يكون بأن أمر مَن ينادي في الناس.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ.

أي: بل أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذَليلٌ.

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ.

أي: ولا يَكادُ يُعرِبُ عمَّا يُريدُ بوُضوحٍ؛ لِعِيِّ مَنطِقِه، وقِلَّةِ فَصاحتِه!

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53).

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ.

أي: فهَلَّا أُلقِيَت على موسى -إن كان رَسولًا مِن رَبِّ العالَمينَ كما يَزعُمُ- أساوِرُ مِن ذَهَبٍ يَتحَلَّى بلُبسِها في يَدَيه!

أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ.

أي: أو هلَّا جاء الملائِكةُ مُتتابِعينَ قد اقتَرَن بعضُهم ببعضٍ، يَشهَدون لموسَى بصِدقِه، ويُعِينونَه على أمرِه![33]

(33) ذكر ابنُ جرير (٢٠/ ٦١٥) أن معنى قوله: ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾: أو هلّا إن كان صادقًا جاء معه الملائكة مقترنين قد اقترن بعضهم ببعض، فتتابعوا يشهدون له بأنه لله رسول إليهم.

ثم قال (٢٠/ ٦١٦): «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف منهم في العبارة على تأويله».

وساق الأقوال.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54).

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ.

أي: فاستخَفَّ فِرعَونُ عُقولَ قَومِه، فصدَّقوا باطِلَه وشُبَهَه، واستَجابوا له!

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ.

أي: لأنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ باللهِ تعالى، خارِجينَ عن طاعتِه، خَذَلهم اللهُ فأطاعوا فِرعَونَ حيثُ زَيَّنَ لهم الشَّرَّ.

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55).

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ.

أي: فلمَّا أغضَبَنا فِرعَونُ وقومُه أوقَعْنا بهم عُقوبَتَنا العاجِلةَ في الدُّنيا.

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

أي: فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فلم نُنْجِ منهم أحَدًا.

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56).

أي: فجعَلْناهم متقدّمينَ في الهلاكِ، قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمِثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم.

قال الله تبارك وتعالى: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات: 25، 26].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (57–65)

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ
لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

غريب الكلمات:

يَصِدُّونَ: أي: يَضِجُّونَ، وقيل: يَضْحَكون، يُقالُ: صَدَّ يَصِدُّ، وذلك إذا ضَجَّ.

خَصِمُونَ: أي: شَدِيدو الخُصومةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ.

يَخْلُفُونَ: أي: يَخلُفُ بَعضُهم بعضًا، ويَعمُرونَ الأرضَ بدَلًا منكم، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه.

لَعِلْمٌ: أي: لَعَلامةٌ ودَليلٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتمَيَّزُ به عن غَيرِه.

فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا: أي: لا تُكَذِّبوا بها، ولا تَشُكُّوا فيها، مِن المِرْيةِ: وهي التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُه مِن: مَرَيْتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرعَها للحَلبِ.

الْأَحْزَابُ: أي: الطَّوائِفُ والفِرَقُ، والحِزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال لِقُرَيشٍ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّه ليس أحَدٌ يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فيه خَيرٌ -وقد عَلِمَتْ قُرَيشٌ أنَّ النَّصارى تَعبُدُ عيسى بنَ مَريمَ، وما تَقولُ في مُحمَّدٍ[34] -، فقالوا: يا محمَّدُ، ألَسْتَ تَزعُمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعَبدًا مِن عِبادِ اللهِ صالِحًا؟! فلَئِنْ كُنتَ صادِقًا فإنَّ آلهتَهم لَكَما تقولونَ! قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)).[35]

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فقال: يا مُحمَّدُ، تَزعُمُ أنَّ اللهَ أنزل عليك هذه الآيةَ: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [الأنبياء: 98]، فقد عُبِدَت الشَّمسُ والقَمَرُ، والملائِكةُ وعُزَيرٌ وعيسى صلواتُ اللهِ عليهم، أوَكُلُّ

---

(34) أي: وما تقولُ النَّصارى في محمَّدٍ مِن عدَمِ تصديقِهم بنُبوَّتِه.

يُنظر: ((الفتح الرباني)) للساعاتي (266/18).

(35) أخرجه أحمد (2918) واللَّفظُ له، والطحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (987)، والطبراني (154/12) (12740).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (329/4)، وحسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3208)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (86/5).

هؤلاء في النَّارِ مع آلهتِنا؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [الأنبياء: 101]، ونَزَلت: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)). (36)

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57).

أي: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى بنَ مَريمَ مَثَلًا للآلهةِ الَّتي تُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ تعالى –حيثُ عَبَده النَّصارى–؛ لِيُحاجُّوا به محمَّدًا – ﷺ – الَّذي أخبرَهم بأنَّ كُلَّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ فمآلُه النَّارُ: إذا

---

(36) أخرجه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (988) واللَّفظ له، والطبراني (153/12) (12739)، والحاكم (3449).
صَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وابنُ القَيِّم في ((شفاء العليل)) (123/1)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (173/2)، وقوَّى إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (988).
قال ابنُ عاشور: (لا يُناكِدُ هذا الوَجهَ إلَّا ما جرى عليه عَدُّ السُّوَرِ في ترتيبِ النُّزولِ مِن عَدِّ سورةِ الأنبياءِ –الَّتي كانت آيتُها سَبَبَ المُجادَلةِ– مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، ولعَلَّ تصحيحَ هذا الوَجهِ عِندَهم يَكُرُّ بالإبطالِ على مَن جَعَل سورةَ الأنبياءِ مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، بل يجِبُ أن تكونَ سابِقةً؛ حتَّى تكونَ هذه الآيةُ مُذَكِّرةً بالقِصَّةِ الَّتي كانت سَبَبَ نُزولِ سورةِ الأنبياءِ، وليس ترتيبُ النُّزولِ بمُتَّفَقٍ عليه، ولا بمُحقَّقِ السَّنَدِ، فهو يُقبَلُ منه ما لا مُعارِضَ له، على أنَّه قد تَنزِلُ الآيةُ ثمَّ تُلحَقُ بسُورةٍ نَزَلت قبلَها، فإذا رُجِّحَ أن تكونَ سورةُ الأنبياءِ نزَلَت قبْلَ سُورةِ الزُّخرفِ كان الجَوابُ القاطِعُ لابنِ الزِّبَعْرَى في قَولِه تعالى فيها: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [الأنبياء: 101] ؛ لأنَّه يعني أنَّ عَدَمَ شُمولِ قَولِه: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ [الأنبياء: 98] لعيسى معلومٌ لِكُلِّ مَن له نظَرٌ وإنصافٌ؛ لأنَّ الحُكمَ فيها إنَّما أُسنِدَ إلى مَعبوداتِ المُشرِكينَ لا إلى معبودِ النَّصارى...
ويكونُ الجوابُ المذكورُ هنا في سُورةِ الزُّخرُفِ بقولِه: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا جوابًا إجماليًّا، أي: ما أرادوا به إلَّا التَّمويهَ؛ لأنَّهم لا يخفى عليهم أنَّ آيةَ سُورةِ الأنبياءِ تُفيدُ أنَّ عيسى ليس حَصَبَ جهنَّمَ، والمقامُ هنا مقامُ إجمالٍ؛ لأنَّ هذه الآيةَ إشارةٌ وتذكيرٌ إلى ما سَبَقَ مِنَ الحادثةِ حينَ نُزولِ آيةِ سُورةِ الأنبياءِ).
((تفسير ابن عاشور)) (237/25، 238).

قَومُك –يا محمَّدُ– قد أحدَثوا جَلَبةً وضَجيجًا وضَحِكًا؛ فَرَحًا وسُرورًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد أفحَموك بتلك الشُّبهةِ الباطِلةِ، وأنَّهم ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ![37]

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1– قِراءةُ يَصِدُّونَ بكَسرِ الصَّادِ، قيل معناها: يَضِجُّونَ ويَصيحونَ فَرَحًا. وقيل: يَضحَكونَ.[38]

---

(37) قال الواحدي: (أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في مُجادَلةِ ابنِ الزِّبَعْرى مع النَّبيِّ – ﷺ – لَمَّا نزَل قولُه تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الأنبياء: 98] الآيةَ).

((الوسيط)) (78/4).

وقال الشنقيطي: (قال جمهورُ المفَسِّرينَ: هو عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْميُّ قبْلَ إسلامِه.

أي: ولَمَّا ضَرَب ابنُ الزِّبَعْرَى المذكورُ عيسى بنَ مريمَ، فاجأك قومُك بالضَّجيجِ والصِّياحِ والضَّحِكِ؛ فَرَحًا منهم، وزعمًا منهم أنَّ ابنَ الزِّبَعْرَى خَصَمَك، أو فاجأك صُدودُهم عن الإيمانِ؛ بسَبَبِ ذلك المَثَلِ.

والظَّاهِرُ أنَّ لَفظةَ مِنْ هنا سَبَبيَّةٌ).

((أضواء البيان)) (123/7).

قال السمعاني: (وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: وهو أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكَرَ حديثَ عيسى لقُرَيشٍ، وأنَّه خلَقَه اللهُ تعالى من غيرِ أبٍ، كما خلَقَ آدمَ مِن غيرِ أبٍ، وذكَرَ ما أظهَرَ اللهُ على يَدِه مِن الآياتِ– جَعَلَت قُرَيشٌ يَضحَكونَ، وقالوا: ما يُريدُ محمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَت النَّصارى عيسى! وهذا قَولُ مجاهِدٍ).

((تفسير السمعاني)) (111/5).

(38) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وعاصِمٌ، وحمزةُ، ويعقوبُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (369/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 400)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 322)، ((معاني القراءات)) للأزهري (367/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (189/4)، ((تفسير ابن كثير)) (233/7)، ((تفسير الشوكاني)) (642/4).

قال ابن قتيبة: (إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ يَضِجُّون، يُقالُ: صَدَدتُ أصِدُّ صَدًّا: إذا ضَجَجْتَ.

و«التَّصدِيةُ» منه، وهو: التَّصفيقُ).

((غريب القرآن)) (ص: 400).

2- قِراءةُ يَصُدُّونَ بضَمِّ الصَّادِ، قيل معناها: يُعرِضونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو: يَضِجُّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنى يَضحَكونَ.[39]

وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58).

وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ.

أي: وقال أولئك المُشرِكونَ: أآلهتُنا خيرٌ أمْ عيسَى،[40] فإن كان عيسَى يَدخُلُ النَّارَ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه؛ لأنَّه خيرٌ مِن آلهتِنا.

وقال ابن كثير: (قال غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: يَضحَكونَ، أي: أُعجِبوا بذلك).

((تفسير ابن كثير)) (7/233).

(39) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/369).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 400)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (4/416)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 322)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/367)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (10/6682)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/123).

(40) قوله تعالى: ﴿أَمْ هُوَ﴾ فيه قولان: الأول: أنه النبي - ﷺ -.

الثاني: أنه عيسى - ﷺ -.

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٥٥٨) القول الثاني الذي قاله السُّدّيّ، وابن زيد، ومقاتل، فقال: «وهذا هو المترجح».

ولم يذكر سندًا.

مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.

أي: ما ذكَر لك كُفَّارُ قُرَيشٍ –يا مُحَمَّدُ– هذا المَثَلَ بعِيسى وتَشبيهَه بآلهتِهم إلَّا مِن بابِ المُغالَطةِ بالباطِلِ؛ لِقَصدِ مُغالَبتِك.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

أي: هم لا يُريدونَ بجِدالِهم مَعرِفةَ الحَقِّ واتِّباعَه، وإنَّما هم قَومٌ شَديدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، فيَرُدُّونَ الحَقَّ مع ظُهورِه لهم، ومَعرِفتِهم بأنَّ ما يُظهِرونَه مِن حُجَجٍ مُجَرَّدُ شُبَهٍ باطِلةٍ!

كما قال تعالى: وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ [غافر: 5].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ – ﷺ –قال: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ))[41].[42]

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59).

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ.

أي: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بالإيمانِ، والنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، وتأييدِه بالمُعجِزاتِ.

---

(41) الألَدُّ الخَصِمُ: أي: الشَّديدُ الخُصومةِ، المُولَعُ بها.
الألَدُّ: مأخوذٌ مِن لَدِيدَيِ الوادي، وهما جانباه؛ لأنَّه كلَّما احتُجَّ عليه بحُجَّةٍ أخَذ في جانبٍ آخَرَ.
والخَصِمُ: هو الحاذقُ بالخُصومةِ، والمذمومُ هو الخُصومةُ بالباطِلِ، في رفْعِ حقٍّ، أو إثباتِ باطِلٍ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (219/16)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (2442/6).
(42) رواه البخاري (2457)، ومسلم (2668).

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [المائدة: 110].

وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

أي: وجعَلْنا عيسى آيةً ودَلالةً وحُجَّةً لِبَني إسرائيلَ، يَستدِلُّونَ بخَلْقِه مِن غيرِ أبٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى على خَلْقِ ما يَشاءُ، وليس هو ابنًا للهِ كما تَزعُمُ النَّصارى!

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً [المؤمنون: 50].

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60).

أي: ولو نَشاءُ لجَعَلْنا بدَلًا مِنكم ملائِكةً يَسكُنونَ في الأرضِ، فيَخلُفونَ فيها.[43]

---

(43) اختُلف في معنى قوله: ﴿يخلفون﴾ على أقوال: الأول: يخلُفونكم ليكونوا بدلًا منكم.
الثاني: يخلُف بعضُهم بعضًا.
والثالث: يخلُفون الرُّسل فيكونون رسلًا إليكم بدلًا منهم.
الرابع: يعمرون الارض بدلكم.
وذكر ابنُ كثير (١٢/ ٣٢٢) أنّ القول الثاني الذي قاله ابن عباس، وقتادة، يستلزم القول الأول الذي قاله السُّدّيّ، ومقاتل.

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61).

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا.

أي: وإنَّ نُزولَ عيسى بنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ،[44] فلا تَشُكُّوا –أيُّها النَّاسُ– في مجيءِ القيامةِ؛ فإنَّها آتيةٌ لا مَحالةَ.

---

(44) اختُلف في عوْد الضمير في قوله: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ على أقوال: الأول: أنه عائد على القرآن، فهو علم للساعة لما فيه من البعث والجزاء.

الثاني: أنه عائد على عيسى؛ إذ خروجه علم الساعة؛ لأنه من علامة القيامة وشروط الساعة.

الثالث: أنه عائد على عيسى، والمعنى: أنّ ما أجراه الله على يديه من إحياء الموتى دليل على الساعة وبعْث الموتى.

الرابع: أنه عائد على النبي – ﷺ –.

ذكَره ابنُ عطية (٧/ ٥٥٩).

وانتقد ابنُ كثير (١٢/ ٣٢٣) القول الثالث الذي قاله ابن إسحاق، فقال: «وفي هذا نظر».

وكذا انتقد القول الأول الذي قاله الحسن من طريق قتادة، وقتادة من طريق معمر، فقال: «وأبعد منه [أي: من قول ابن إسحاق] ما حكاه قتادة...: أي الضمير في ﴿وإنه﴾ عائد على القرآن».

ثم رجَّح –مستندًا إلى دلالة السياق والقرآن والقراءات– القول الثاني الذي قاله ابن عباس، ومجاهد، والضَّحّاك، وأبو مالك، والحسن، وابن زيد، ومقاتل، والسُّدّي، فقال: «بل الصحيح أنه عائد على عيسى – عليه السلام –؛ فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي: قبل موت عيسى – ﷺ –، ثم ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: (وإنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسّاعَةِ) أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة».

وساق ابنُ عطية الأقوال، ثم علَّق بقوله: «مَن قال: إن الإشارة إلى عيسى.

حسن مع تأويله» علْم «، و» عَلَم «أي: هو إشعار بالساعة وشرط من أشراطها، يعني: خروجه في آخر الزمان، وكذلك من قال: الإشارة إلى محمد – ﷺ –، أي: هو آخر الأنبياء.

فقد تميّزت الساعة به نوعًا وقدرًا من التمييز، وبقي التحديد التام الذي انفرد الله بعلمه، ومن قال: الإشارة إلى القرآن.

حسُن قوله في قراءة من قرأ: ﴿لعلم﴾ بكسر العين وسكون اللام، أي: يعلمكم بها وبأهوالها وصفاتها، وفي قراءة من قرأ: (لَذِكْرٌ)».

كما قال تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا [النساء: 158، 159].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أن ينزِلَ فيكم ابنُ مَريمَ حَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضعَ الجِزْيةَ، ويَفيضَ المالُ حتَّى لا يَقْبلَه أحَدٌ)).(45)

وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

أي: وأطيعُوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى الحَقِّ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخِرةِ.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62).

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ.

أي: ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه عن هذا الصِّراطِ المُستقيمِ؛ فتَضِلُّوا عن الحَقِّ.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، حَريصٌ على إضلالِكم، وباذِلٌ جُهدَه في إهلاكِكم.

(45) رواه البخاري (2222) واللفظ له، ومسلم (155).

كما قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 6].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ [يس: 60 – 62].

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63).

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ.

أي: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِه، قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ.

وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

أي: وجِئتُكم لِأُبَيِّنَ لكم بَعضَ الَّذي تختَلِفونَ فيه مِن أُمورِكم، فأُوَضِّحَ لكم الصَّوابَ، وأُجَلِّيَ لكم ما خَفِيَ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

أي: فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما يأمُرُكم به، واجتِنابِ ما يَنهاكم عنه.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64).

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.

أي: قال عيسى: إنَّ اللهَ الَّذي ينبغي إفرادُه بالعِبادةِ والطَّاعةِ هو رَبِّي وربُّكم؛ فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه، وأنا وأنتم مُشتَرِكونَ في وُجوبِ ذلك علينا.

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

أي: عِبادةُ اللهِ وَحْدَه وطاعتُه طَرِيقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى اللهِ، وإلى رِضوانِه وجَنَّتِه.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65).

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ.

أي: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛[46] فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فزَعَم بَعضُهم أنَّه ابنُ اللهِ تعالى، وزَعَم بَعضُهم أنَّه اللهُ تعالى، وزَعَم آخَرونَ منهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ –تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا.

---

(46) اختُلف في المعنيّين بالأحزاب على قولين: الأول: أنهم الجماعة التي تناظرت في أمر عيسى، واختلفت فيه.

الثاني: أنهم اليهود والنصارى.

وجمع ابنُ جرير (٢٠/ ٦٣٨) بين القولين، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: معنى ذلك: فاختلف الفرق المختلفون في عيسى ابن مريم مِن بين مَن دعاهم عيسى إلى ما دعاهم إليه مِن اتقاء الله والعمل بطاعته، وهم اليهود والنصارى، ومَن

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 105].

وقال الله سُبحانَه: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [المؤمنون: 53].

وعن مُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ألَا إنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قام فينا فقال: ألَا إنَّ مَن قَبْلَكم مِن أهلِ الكِتابِ افتَرَقوا على ثِنْتَينِ وسَبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّةَ ستَفترِقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثِنتانِ وسَبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجَنَّةِ، وهي الجَماعةُ)).[47]

اختلف فيه مِن النصارى؛ لأنّ جميعهم كانوا أحزابًا مُتَشَتّتين، مختلفي القول، مع بيانه لهم أمر نفسه، وقوله لهم: ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾».

(47) أخرجه أبو داود (4597) واللَّفظُ له، وأحمد (16937).

حَسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (37/19)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4597)، وحسَّنه لغيره الوادعيُّ في ((صحيح دلائل النبوة)) (577).

وحديثُ الافتِراقِ رُوِيَ بألفاظٍ مُختلِفةٍ: ذكر الحاكمُ بعضَ طُرُقِه ثمَّ قال: (هذه أسانيدُ تُقامُ بها الحجَّةُ في تصحيحِ هذا الحديثِ).

((المستدرك)) (218/1).

وقال العِراقي: (حديث افتِراقِ الأُمَّةِ...

أسانيدُها جِيادٌ).

((تخريج الإحياء)) (230/3).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

أي: فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يومِ القيامةِ!

كما قال تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ [مريم: 37].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (66–73)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ
آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ
عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

غريب الكلمات:

بَغْتَةً: أي: فَجأةً، والبَغْتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ.

الْأَخِلَّاءُ: جمعُ خَليلٍ، وهو الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، وهي: الصَّداقةُ والمَودَّةُ؛ لأنَّها تَتخَلَّلُ النَّفسَ، أي: تَتوسَّطُها، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ بينَ شَيئَينِ.

تُحْبَرُونَ: أي: تُكرَمونَ وتُنعَّمون وتُسَرُّونَ، والحَبْرَةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ.

بِصِحَافٍ: جَمعُ صَحْفةٍ، وهي القَصْعةُ العَريضةُ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعةٍ.

وَأَكْوَابٍ: جَمعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ، لا عُرْوةَ له (وهي ما يُمسَكُ منها) ولا خُرطومَ.

تفسير الآيات:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66).

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا يومَ القيامةِ الذي يأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ.

كما قال تعالى: ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً [الأعراف: 187].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لَتقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشَرَ الرَّجُلانِ ثوبَهما بينَهما فلا يَتبايَعانِه ولا يَطويانِه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه فلا يَطعَمُه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه فلا يَسقي فيه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رَفَع أحَدُكم أُكلَتَه إلى فيه فلا يَطعَمُها!)).[48]

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67).

أي: الأصدِقاءُ المتصاحِبونَ على الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا يكونُ بَعضُهم أعداءً لِبَعضٍ يومَ القيامةِ، ويَتبرَّأُ بَعضُهم مِن بَعضٍ إلَّا الذين اتَّقَوا اللهَ، فتآخَوا في الدُّنيا، وتَصاحَبوا على توحيدِ اللهِ وطاعتِه ومحبَّتِه.

كما قال الله تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ [البقرة: 166].

(48) رواه البخاري (6506) واللَّفظُ له، ومسلم (2954).

وقال سُبحانَه: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وقال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ [الزخرف: 38].

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: المتحابُّونَ في جَلالي لهم مَنابِرُ مِن نُورٍ، يَغبِطُهم[49] النَّبيُّونَ والشُّهَداءُ)).[50]

يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68).

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ لأولئك المتَّقينَ: يا عِبادي لا خَوفٌ عليكم في هذا اليَومِ مِن أمرٍ مُستَقبَلٍ؛ فإنِّي أُؤَمِّنُكم مِن الأهوالِ والعَذابِ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى؛ فأنتم مُقدِمونَ على ما يَسُرُّكم.

---

(49) يَغبِطُهم: مِنَ الغِبْطةِ، وهي تَمنِّي نِعمةٍ على ألَّا تتحَوَّلَ عن صاحِبِها، بخِلافِ الحَسَدِ؛ فإنَّه تَمنِّي زوالِها عن صاحِبِها.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3137/8).

(50) أخرجه الترمذي (2390)، وأحمد (22080).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.
وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2390)، وصحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (399/36، 400).

كما قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [يونس: 62 – 64].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [الأنبياء: 101 – 103].

وقال عزَّ وجلَّ: فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا [الإنسان: 11].

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69).

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا.

أي: الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ، وعَمِلوا بما جاءَتْهم به رسلُهم.

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ.

أي: وكانوا دومًا خاضِعينَ لله، مُنقادينَ لِشَرعِه.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70).

أي: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم، فتُكرَمونَ فيها، وتُسَرُّونَ سُرورًا بالِغًا.

كما قال الله تعالى: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ [الرعد: 23].

وقال سُبحانَه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [الروم: 15].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ [يس: 55 – 57].

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71).

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ.

أي: يُطافُ عليهم في الجنَّةِ بقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ فيها أنواعٌ مِن الطَّعامِ، وبأوعيةٍ للشُّربِ فيها أنواعٌ مِنَ الشَّرابِ.

كما قال الله سبحانه وتعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ [الواقعة: 17 – 21].

وقال سُبحانَه: وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا [الإنسان: 15، 16].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحَريرَ ولا الدِّيباجَ،[51] ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ)).[52]

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكُلونَ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يَتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟ قال: جُشاءٌ ورَشْحٌ كرَشْحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما تُلهَمونَ النَّفَسَ))[53].[54]

وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن المأكولاتِ والمَشروباتِ والمَلبوساتِ، والمَسموعاتِ والمَرئيَّاتِ، والمساكِنِ والمناكِحِ، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ المَلَذَّاتِ والمَسرَّاتِ.

كما قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [ق: 35].

وقال سُبحانَه: وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ [الطور: 22].

---

(51) الدِّيباجُ: هو نَوعٌ مِن الحريرِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (7/2749).

(52) رواه البخاري (5426) واللفظ له، ومسلم (2067).

(53) النَّفَسُ: أي: التَّنفُّسُ، والمعنى: لا يَتعَبونَ مِن التَّسبيحِ والتَّهليلِ كما لا تَتعَبون أنتم مِن النَّفَسِ؛ بحيث يصيرُ الذِّكرُ صِفةً لازِمةً لا ينفكُّونَ عنها كالنَّفَسِ اللَّازِمِ للحيوانِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (9/3582).

(54) رواه مسلم (2835).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَر على قَلبِ بَشَرٍ، فاقرَؤوا إن شِئتُم: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [السجدة: 17])).[55]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ - ﷺ -كان يومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه[56] واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك يا ابنَ آدَمَ؛[57] فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ - ﷺ -)).[58]

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((إنَّ الرَّجُلَ مِن أهلِ الجنَّةِ يُعطى قُوَّةَ مِئةِ رجُلٍ في الأكلِ والشُّربِ والشَّهوةِ والجِماعِ! فقال رجُلٌ مِن اليَهودِ: فإنَّ الذي يأكُلُ ويَشرَبُ تكونُ

---

(55) رواه البخاري (3244) واللفظ له، ومسلم (2824).

(56) فبادَرَ الطَّرفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحصَل في الحالِ.

والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَك.

وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها.

يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (297/15)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3600/9).

(57) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمَنَّيتَه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3600/9).

(58) رواه البخاري (2348).

له الحاجةُ. فقال له رَسولُ الله - ﷺ -: حاجةُ أحَدِهم عَرَقٌ يَفيضُ مِن جِلدِه، فإذا بَطنُه قد ضَمُرَ)[59]. [60]

وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَلْتَذُّ برُؤيتِه أعينُهم؛ لحُسنِه وجمالِه.

وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: وأنتم في الجنَّةِ ماكِثونَ، لا يَنقَطِعُ نَعيمُها عنكم، ولا أنتم منها تُخرَجونَ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [الكهف: 107، 108].

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72).

أي: يُقالُ لهم: وتلك هي الجنَّةُ العاليةُ المقامِ التي أعطاكم اللهُ إيَّاها؛ بسَبَبِ ما كنتُم تعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ.

---

(59) ضَمُرَ: أي: ذَهَب رَهَلُه، واشتَدَّ لَحْمُه.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (3/99).

(60) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11478)، وأحمد (19314) واللفظ له.

صَحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (1627)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (350)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (65/32).

كما قال تعالى: وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: 43].

وقال سُبحانَه: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [مريم: 63].

وقال تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر: 74].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ [المؤمنون: 10])).[61]

---

(61) أخرجه ابن ماجه (4341)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (377) واللفظ لهما، والبزار (9152) مختَصرًا.

صَحَّح إسنادَه القرطبيُّ المفَسِّر في ((التذكرة)) (435)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (4/266) وقال: (على شرط الشيخين)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (11/451)، وذكر الشوكاني في ((تفسيره)) (3/673) أنَّ له شاهِدًا في مسلم.

وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4341).

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73).

أي: لكم فيها فَواكِهُ كَثيرةٌ مُتنَوِّعةٌ تأْكُلونَ منها ما اشتَهيتُم واختَرتُم.

كما قال تعالى: لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ [يس: 57].

وقال سُبحانَه: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آَمِنِينَ [الدخان: 55].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (74–80)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

غريب الكلمات:

لَا يُفَتَّرُ: أي: لا يُخَفَّفُ، والفُتورُ: سكونٌ بعْدَ حدَّةٍ، ولِينٌ بعْدَ شدَّةٍ، وضعْفٌ بعْدَ قوَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ.

مُبْلِسُونَ: أي: آيِسونَ قانِطونَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يَأسٍ.

مَاكِثُونَ: أي: لابِثون ثابِتون مُنتظِرون في النَّارِ، مِن المُكثِ: وهو ثَباتٌ مع انتظارٍ.

أَبْرَمُوا: أي: أحْكَموا، وأصلُ (برم) هنا: يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ، مِن إبرامِ الحَبْلِ، وهو تَرديدُ فتْلِه.

وَنَجْوَاهُمْ: أي: ما يَتَسارُّونَ به بيْنَهم، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74).

أي: إنَّ الذين أجْرَموا في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رُسُلِه، وعِصيانِ أمرِه: في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا.

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75).

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ.

أي: لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ ولو ساعةً واحِدةً.

وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

أي: وهم في عَذابِ جَهنَّمَ آيِسونَ مِن النَّجاةِ، غيرُ راجِينَ للفَرَجِ.

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76).

أي: وما ظَلَمْناهم ولكِنْ هم ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالشِّركِ باللهِ، وجُحودِهم آياتِه، وتَكذيبِهم رُسُلَه، وعِصيانِهم لأمْرِه.

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77).

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ.

أي: ونادَى المُجرِمونَ –وهُمْ في النَّارِ– مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيُمِتْنا رَبُّك فيَقبِضْ أرواحَنا؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحن فيه مِنَ العَذابِ!

كما قال الله تبارك وتعالَى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [طه: 74].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

وقال سُبحانَه وتعالَى: وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [الأعلى: 11 – 13].

وعن سَمُرَةَ بنِ جُندُبٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((رأيتُ اللَّيلةَ رَجُلينِ أتيَاني قالَا: الَّذي يُوقِدُ النَّارَ مالِكٌ خازِنُ النَّارِ، وأنا جِبريلُ، وهذا مِيكائيلُ)).(62)

قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ.

أي: أجابَهم مالِكٌ خازِنُ النَّارِ بقَولِه: إنَّكم باقُونَ في عَذابِ جهنَّمَ، ولا خُروجَ لكم منها أبدًا.

كما قال تعالَى: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 167].

---

(62) رواه البخاري (3236).

وقال سُبحانَه: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [المائدة: 37].

وقال الله تَبارك وتعالَى: مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا [الإسراء: 97].

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78).

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ.

أي: لقدْ أرسَلْنا إليكم رَسولَنا بالحقِّ.(63)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كارِهونَ لِما جاءَكم به رسولُنا مِن الحقِّ، فلم تَقْبلوه، ولم تَخضَعوا له وتَنقادوا إليه!

كما قال تعالَى: بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [المؤمنون: 70].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [محمد: 8، 9].

---

(63) ذكر ابن عطية (٧/ ٥٦٣) أن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ...﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون من قول مالك لأهل النار، ويكون قوله: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ على حدّ ما يُدخِل أحدٌ -حمّله الرئيسُ كتابَه- عن نفسه في فعل الرئيس، فيقول: غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثم ينقطع كلام مالك في قوله: ﴿كَارِهُونَ﴾.
الثاني: أن يكون قوله: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ من قول الله تعالى لقريش، بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك، وفي هذا توعّد وتخويف فصيح، بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم، ثم تتصل الآية -على هذا- بما بعدها من أمر قريش.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79).

أي: أمْ أحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمرًا يَكيدونَ به الحقَّ وأهْلَه، ولم يَقتَصِروا على كَراهتِه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لِكَيدِهم به!

كما قال الله تبارك وتعالَى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ [الأنبياء: 18].

وقال سُبحانَه: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ [الطور: 42].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا [الطارق: 15، 16].

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80).

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.

أي: أمْ يظُنُّ أولئك المُشرِكونَ باللهِ أنَّا لا نَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم من الكَلامِ الخَفيِّ، فلا نُؤاخِذُهم بذلك؟!

بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ.

أي: بلَى! نحن نَسمَعُ ما يُسِرُّونَ، وما به يَتناجَونَ، ومَلائِكتُنا الحَفَظةُ عِندَهم يَكتُبونَ جَميعَ أحاديثِهم، وسيُجازَونَ عليها!

كما قال تعالَى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: 17، 18].

وقال الله سُبحانه: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر: 52، 53].

وقال الله عزَّ وجلَّ: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: 10 – 12].

سورةُ الزُّخرُفِ

الآيات (81–89)

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)
وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ
عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(89))

غريب الكلمات:

يَخُوضُوا: الخوضُ: الدُّخولُ في الحَديثِ، ويُطلَقُ على الجِدالِ واللَّجاجِ غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ مِن الكلامِ، وأكثرُ ما ورَدَ في القرآنِ ورَد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وأصلُه: الدُّخولُ في الماءِ والشُّروعُ فيه والمرورُ، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ.

وَتَبَارَكَ: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ.

الشَّفَاعَةَ: الشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسُؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه. ومِنه: الشَّفاعةُ في القِيامةِ.

يُؤْفَكُونَ: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدونَ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه.

وَقِيلِهِ: أي: وقَولِه، والقَولُ والقيلُ والقالُ بمعنًى واحدٍ، مِن النُّطقِ.

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ: أي: فأَعرِضْ عنهم، واترُكْ عُقوبتَهم على اللهِ تعالَى، يُقالُ: صَفحْتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصَرَف عنه وجْهَه.

تفسير الآيات:

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81).

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك جدَلًا: إنْ ثَبَت أنَّ للرَّحمنِ وَلَدًا ببُرهانٍ صحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الولدِ.(64)

(64) اختُلف في قوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين﴾ على أقوال: الأول: أن معنى ذلك: إن كان للرحمن ولد فأنا أول المؤمنين بالله في تكذيبكم، والجاحدين ما قلتم من أن له ولدًا.

الثاني: أن معنى ذلك نفي، ومعنى ﴿إن﴾ الجحد، وتفسير ذلك: ما كان ذلك، ولا ينبغي أن يكون.

الثالث: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين له بذلك.

الرابع: قل إن قلتم: إن للرحمن ولدًا.

فأنا أول الآنفين من ذلك.

ونسبه ابنُ كثير لسفيان.

الخامس: أن معنى ﴿إن﴾ في هذا الموضع معنى المجازاة، ومعنى الكلام: لو كان للرحمن ولد كنت أول من عبده بذلك.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٦٥٧ - ٦٥٨) القول الأخير الذي قاله السُّدّيّ، وقتادة.

وانتقد القولَ الثاني الذي قاله ابن زيد، وقتادة من طريق سعيد -مستندًا إلى الدلالة العقلية والنظائر-، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: معنى ﴿إن﴾ الشرط الذي يقتضي الجزاء.

على ما ذكرناه عن السُّدّي، وذلك أن ﴿إن﴾ لا تعدو في هذا الموضع أحد معنيين: إما أن يكون الحرف الذي هو بمعنى الشرط الذي يطلب الجزاء، أو تكون بمعنى الجحد، وهي إذا وجّهت إلى الجحد لم يكن للكلام كبير معنى؛ لأنه يصير بمعنى: قل: ما كان للرحمن ولد.

وإذا صار بذلك المعنى أوهم أهل الجهل من أهل الشرك بالله أنه إنما نفى بذلك عن الله - عز وجل - أن يكون كان له ولد قبل بعض الأوقات، ثم حدث له الولد بعد أن لم يكن، مع أنه لو كان ذلك معناه لقدَر الذين أمر الله نبيه محمدًا - ﷺ - أن يقول لهم: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين.

أن يقولوا له: صدقت، وهو كما قلت، ونحن لم نزعم أنه لم يزل له ولد، وإنما قلنا: لم يكن له ولد، ثم خلق الجن فصاهرهم، فحدث له منهم ولد.

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82).

أي: تنزَّهَ اللهُ ربُّ السَّموات والأرضِ وربُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه تعالَى، ومِن ذلك دَعْواهم أنَّ له وَلَدًا سُبحانَه.

كما قال تعالَى: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [الزمر: 4].

كما أخبر الله – عز وجل – عنهم أنهم كانوا يقولونه، ولم يكن الله –تعالى ذكره– ليحتجَّ لنبيه – ﷺ – على مكذّبيه مِن الحجة بما يقدرون على الطعن فيه، وإذ كان في توجيهنا ﴿إن﴾ إلى معنى الجحد ما ذكرنا فالذي هو أشبه المعنيين بها: الشرط، وإذ كان ذلك كذلك فبيّنة صحةُ ما نقول مِن أن معنى الكلام: قل –يا محمد– لمشركي قومك الزاعمين أن الملائكة بنات الله: إن كان للرحمن ولد فأنا أول عابديه بذلك منكم، ولكنه لا ولد له، فأنا أعبده بأنه لا ولد له، ولا ينبغي أن يكون له.

وإذا وجّه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجْه الشك، ولكن على وجه الإلطاف من الكلام وحسن الخطاب، كما قال –جل ثناؤه–: ﴿قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤]، وقد علم أنّ الحق معه، وأنّ مخالفيه في الضلال المبين».

وذكر ابنُ جرير (٢٠/ ٦٥٦ – ٦٥٧) أن من قالوا بالقول الرابع وجّهوا معنى ﴿العابدين﴾ إلى: المنكرين الآبين، مِن عبِد الرجل: إذا أنِف وأنكر الشيء، ومنه قول الشاعر:

متى ما يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَه ويَعْبَدْ عَلَيْه لا مَحَالَةَ ظالِما

ومنه حديث عثمان وعلي في المرجومة حين قال علي: وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا.

قال: فما عبِد عثمان أن بعث إليها لتُرَدَّ.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٧/ ٥٦٥).

وانتقد ابنُ كثير (١٢/ ٣٣٠) هذا القول مستندًا إلى اللغة، فقال: «وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟! هذا فيه نظر، فليتأمل. اللهم، إلا أن يقال: ﴿إن﴾ ليست شرطًا، وإنما هي نافية».

وقال سُبحانَه: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [المؤمنون: 91، 92].

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83).

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ.(65)

وقيل: لا نسْخَ فيها.(66)

(65) ممَّن اختار أنَّ الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف: مقاتلُ بن سُليمان، والثَّعلبي، والمَقَّرِي، ومحمد بن حزم، وابنُ الفرس، والعُلَيمي، ومرْعي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (807/3)، ((تفسير الثعلبي)) (347/8)، ((الناسخ والمنسوخ)) للمَقَّرِي (ص: 158)، ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: 55)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (473/3)، ((تفسير العليمي)) (241/6)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: 185).

قال الألوسي: (إنْ أُريدَ مِن الآيةِ الكفُّ عن القتالِ فهي مَنسوخةٌ، وإنْ أُريدَ الكفُّ عن مُقابَلتِهم بالكلامِ فليست بمنسوخةٍ).

((تفسير الألوسي)) (108/13).

(66) ممَّن اختار أنَّه لا نَسْخَ: الرازيُّ، وعلَمُ الدِّين السخاويُّ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (650/27)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: 463).

ورجَّح ابنُ باز -تبعًا لابن تيميَّةَ- أنَّه لا نَسْخَ، وأنَّ ذلك يختَلِفُ باختلافِ أحوالِ المسلمينَ قُوَّةً وضعفًا.

قال ابنُ باز: (وهذا القولُ أظهَرُ وأبيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعِدةَ الأُصوليَّةَ: أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدِلَّةِ، والجَمعُ هنا غيرُ مُتعَذِّرٍ).

((مجموع فتاوى ابن باز)) (194/3).

ويُنظر أيضًا: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: 221).

أي: فاترُكْ –يا مُحمَّدُ– هؤلاء المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ يَخوضُوا في باطِلِهم وجَهْلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم إلى أنْ يُلاقوا اليومَ الَّذي يَحِلُّ فيه عَذابُهم وهَلاكُهم!

كما قال تعالَى: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [الحجر: 3].

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84).

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ.

أي: واللهُ تعالَى هو المَعبودُ الحَقُّ في السَّماءِ، وهو المعبودُ الحَقُّ في الأرضِ.

كما قال اللهُ تعالَى: وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ [الأنعام: 3].

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ.

أي: واللهُ هو البالِغُ الحِكمةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ، فيَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85).

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

أي: تعالَى وتَقَدَّس وكَثُر خيرُه وإحسانُه؛ اللهُ الَّذي له مُلكُ جميعِ السَّموَاتِ والأرضِ، وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ فيها.

وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ.

أي: وهو وَحْدَه مَن يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ السَّاعةِ.

كما قال تعالَى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [لقمان: 34].

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَصيرونَ –أيُّها النَّاسُ– يومَ القِيامةِ، فيَبعَثُكم للحِسابِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعَمَلِه.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86).

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ.

أي: ولا يَملِكُ الذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحَدٍ عندَ اللهِ.

إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: إلَّا مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ لله -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ بذلك عن عِلمٍ ويَقِينٍ وبَصيرةٍ، فاللهُ يَأذَنُ لهم بالشَّفاعةِ للمُؤمنينَ المُوحِّدينَ، فتَنفَعُ حِينها شَفاعتُهم.(67)

---

(67) اختُلف في المستثنى في قوله: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ على قولين: الأول: أنّه استثنى مِمَّن عبد من دون الله: عيسى وعزيرًا والملائكة، والمعنى: فإنهم يملكون شفاعة بأن يُملِّكها اللهُ إياهم، إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمونه في كل أحوالهم.

الثاني: أنه استثنى في المشفوع فيهم، فكأنه قال: لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق وهم يعلمون بالتوحيد.

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٦٧) أن الاستثناء -على القول الأول الذي قاله قتادة، ومقاتل- متصل، وأنه -على القول الثاني الذي قاله مجاهد- منفصل، كأنه تعالى قال: لكن من يشهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٠/ ٦٦٢ - ٦٦٣) القول الأول الذي قاله قتادة مستندًا إلى دلالة أحوال النزول، والنظائر، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله -تعالى ذكره- أخبر أنه لا يملِك الذين يعبدهم المشركون من دون الله الشفاعة عنده لأحد، إلا من شهد بالحق.

وشهادته بالحق هو: إقراره بتوحيد الله، وإنما يعني بذلك: إلا من آمن بالله، وهم يعلمون حقيقة توحيده.

ولم يخْصُص بأن الذي لا يملك تلك الشفاعة منهم بعض من كان يُعبد من دون الله دون بعض، فذلك على جميع مَن كان تعبد قريش من دون الله يوم نزلت هذه الآية وغيرهم، وقد كان فيهم مَن يعبد من دون الله الآلهة، وكان فيهم مَن يعبد من دونه الملائكة وغيرهم، فجميع أولئك داخلون في قوله: ولا يملك الذين تدعو قريش وسائر العرب من دون الله الشفاعة عند الله، ثم استثنى -جل ثناؤه- بقوله: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ وهم الذين يشهدون شهادة الحق، فيوحّدون الله، ويخلصون له الوحدانية، على علم منهم ويقين بذلك أنهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها، كما قال -جلّ ثناؤه-: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فأثبت تعالى ذكره للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان، باستثنائه الذي استثناه».

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٥٦٧) القول الأول، فقال: «والتأويل الأول أصوب».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر ابنُ تيمية (٥/ ٥٣٤ - ٥٣٦) أن كلا القولين صحيح، ثم رجَّح القول الثاني الذي قاله مجاهد مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية، ودلالة العقل، فقال: «التحقيق في تفسير الآية: أنّ الاستثناء منقطع، ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقًا، لا يستثنى من ذلك أحد عند الله، فإنه لم يقل: ولا يشفع أحد.

ولا قال: لا يشفع لأحد.

بل قال: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾.

وكل مَن دُعي من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة، والشفاعة بِإذْنٍ ليست مختصّة بمن عُبد من دون الله؛ وسيّد الشفعاء – ﷺ – لم يُعبد كما عُبد المسيح.

وهو –مع هذا– له شفاعة ليست لغيره، فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دُعي من دون الله دون من لم يُدع».

وانتقد القول الأول بما مفاده الآتي: ١ – أنه يفيد أن من دُعي من دون الله لا يملك الشفاعة إلا أن يشهد بالحق وهو يعلم، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم، ويبقى الذين لم يُدعَوا من دون الله لم تُذكر شفاعتهم لأحد.

وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه، وسبب نزول الآية يبطله أيضًا.

٢ – أن قوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ يتناول كل معبود من دونه، ويدخل في ذلك الأصنام، فإنهم كانوا يقولون: هم يشفعون لنا.

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] فإذا قيل: إنه استثنى الملائكة والأنبياء كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم.

٣ – إذا كان المعنى: أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم إذا كانوا صالحين.

والقرآن كله يبطل هذا المعنى، ولهذا قال تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] فبيّن أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرّبّ.

فعلم: أنه لابد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق.

٤ – القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه نفاها مطلقًا.

وقوله: ﴿من دونه﴾ يحتمل ثلاثة تقديرات: الأول: أن يكون متصلًا بقوله: ﴿يملكون﴾، والمعنى: لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه.

الثاني: أن يكون متصلًا بقوله: ﴿يدعون﴾، والمعنى: لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا.

الثالث: أن يكون متصلًا بهما، والمعنى: لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه.

ورجّح ابنُ تيمية التقدير الثاني إستنادًا إلى ظاهر الآية، والنظائر؛ لكونه أخّر ﴿الشفاعة﴾ وقدّم ﴿من دونه﴾، ولكثرة نظائره في القرآن؛ كقوله: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ [يونس: ١٨].

وانتقد التقديرَ الأول مستندًا للنظائر، حيث إنّ اللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال: لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه أو لمن ارتضى ونحو ذلك، لا يقال في هذا المعنى: ﴿من دونه﴾؛ فإن الشفاعة هي من عنده، فكيف تكون من دونه؟! لكن قد تكون بإذنه، وقد تكون بغير إذنه.

وأيضًا فإذا قيل: ﴿الذين يدعون﴾ مطلقًا دخل فيه الرّبُّ تعالى، فإنهم كانوا يدعون الله ويدعون معه غيره، ولهذا قال: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر﴾ [الفرقان: ٦٨].

وذكر أنّ التقدير الثالث وإن كان أجود من الأول إلا أنه يَرِدُ عليه ما يرد على الأول.

كما قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [الأنبياء: 26 – 28].

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

أي: ولَئِنْ قُلْتَ –يا مُحمَّدُ– للمُشرِكينَ: مَن الذي خَلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه.

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.

أي: فكيفَ ومِن أيِّ جِهةٍ يُصرَفُ المُشرِكونَ –مع اعتِرافِهم هذا– عن عِبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَهم، إلى عِبادةِ غَيرِه؟!

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88).

أي: وعِندَ اللهِ تعالَى عِلمُ قولِ رَسولِه –شاكيًا إليه تَكذيبَ قَومِه–: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الذي جِئتُهم به!

ثم ذكر أنه مما يضعفهما: أنّ ﴿الشفاعة﴾ لم تذكر بعدها صلة لها، بل قال: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾، فنفى ملكهم الشفاعة مطلقًا.

وهذا هو الصواب.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ: وَقِيلِهِ بكَسرِ اللَّامِ والهاءِ، قيل: هي مَعطوفةٌ على السَّاعَةِ في قَولِه تعالى: وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ والمعنى: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ وعِلمُ قِيلِه. وقيل غيرُ ذلك.(68)

2- قِراءةُ وَقِيلَهُ بفتْحِ اللَّامِ وضَمِّ الهاء، على العَطفِ على سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ في قَولِه تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ [الزخرف: 80]، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم ولا نَسمَعُ قِيلَه: يا رَبِّ. وقيل: مَعطوفٌ على مَوضِعِ السَّاعَةِ في قَولِه تعالى: وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [الزخرف: 85]، أي: وعِندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه. وقيل غيرُ ذلك.(69)

---

(68) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (370/2).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (665/20)، ((تفسير ابن عاشور)) (274/25).

(69) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (370/2).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (665/20)، ((تفسير ابن عاشور)) (274/25).

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89).

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: الآيةُ منسوخةٌ.

وقيل: لا نسْخَ فيها.

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ.

أي: فاصفحْ –يا محمَّدُ– عن أولئك المُشرِكِينَ، وأعرِضْ عن مُؤاخَذتِهم وعِتابِهم.

كما قال تعالَى: وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [الحجر: 85].

وَقُلْ سَلَامٌ.

أي: وقُلْ لهم: سَلِمْتُم منَّا، فلا نُجيبُكم بسُوءٍ.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ المُشرِكونَ حَقيقةَ ما سيَلقَونه؛ جَزاءَ كُفرِهم بالحقِّ، وشِرْكِهم باللهِ تعالَى.[70]

---

(70) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٦٧ – ٥٦٨) أن قوله: ﴿فاصفح عنهم﴾ موادعة منسوخة بآيات السيف، وأن قوله: ﴿سلام﴾ تقديره: وقل: أمري سلام، أي: مسالمة.

ثم ذكر أن فرقة قالت: المعنى: وقل سلام عليكم على جهة الموادعة والملاينة.

ثم علَّق بقوله: «والنسخ قد أتى على هذا السّلام؛ سواء كان تحية، أو عبارة عن الموادعة».

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ: تَعْلَمُونَ بالتَّاءِ على الخِطابِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أمَرَ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ ذلك للمُشرِكينَ؛ تهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ.

2- قِراءةُ: يَعْلَمُونَ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَرِ، على أنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُشرِكينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم.

تَفْسيرُ
سُورَةِ الدُّخَانِ

سُورةُ الدُّخَانِ

سُورةُ الدُّخَانِ

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ الدُّخَانِ.[71]

سورةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ،[72] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[73]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الدُّخَانِ:

1- إثباتُ الوَحدانيَّةِ للهِ سُبحانَه وتعالَى، وتقريرُ البَعثِ والنُّشورِ.

---

(71) سُمِّيت سورةُ الدُّخَانِ بذلك؛ لِقَولِه تعالى فيها: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ [الدخان: 10] ؛ اهتِمامًا بشَأنِه.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (424/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (275/25).

وتُسمَّى أيضًا (حم الدُّخَانِ) قال ابنُ عاشور: (واللَّفظانِ بمَنزلةِ اسمٍ واحِدٍ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حم» غيرُ خاصَّةٍ بهذه السُّورة، فلا تُعَدُّ عَلَمًا لها؛ ولذلك لم يَعُدَّها صاحِبُ «الإتقان» في عدادِ السُّوَرِ ذواتِ أكثَرَ مِن اسمٍ، وسُمِّيت في المصاحِفِ وفي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ الدُّخَانِ).

((تفسير ابن عاشور)) (275/25).

(72) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا [الدخان: 15] ؛ فإنَّه مدنيٌّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (5/21)، ((تفسير الزمخشري)) (269/4)، ((تفسير الرازي)) (651/27).

(73) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (6/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (87/4)، ((تفسير القرطبي)) (125/16)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (424/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (470/2).

قال ابنُ عطية (٧/ ٥٦٩): «هذه السورة مكية، لا أحفظ خلافًا في شيء منها».

2- إثباتُ إنزالِ القُرآنِ مِن اللهِ تعالَى.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سُورةُ الدُّخَانِ:

1- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وبيانُ بَدءِ نُزولِه.

2- تَهديدُ المُشرِكينَ بالعَذابِ؛ جَزاءً على تَمادِيهم في الإعراضِ والشَّكِّ.

3- سَوقُ جانبٍ مِن قِصَّةِ فِرعَونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ.

4- ذِكرُ أقوالِ المُشرِكينَ الباطِلةِ في شأنِ البَعثِ، مع الرَّدِّ عليهم بما يَدحَضُ حُجَّتَهم.

5- وَصفُ أهوالِ يومِ القِيامةِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ.

6- تَسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - عمَّا أصابه مِن أذًى، مع وَعْدِه بالنَّصرِ على أعدائِه.

سُورَةُ الدُّخَانِ

الآيات (1–8)

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مُبَارَكَةٍ: أي: كَثيرةِ الخيْراتِ والبركاتِ، والبركةُ: كثْرةُ الخيرِ ودَوامُه، ومَن ألْقَى اللهُ عليه برَكتَه فهو المبارَكُ، فالبركةُ: ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وأصلُ (برك): اللُّزومُ والثُّبوتُ.

يُفْرَقُ: أي: يُفصَلُ ويُقضَى، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تَميزٍ بيْنَ شيئَينِ.

مُوقِنِينَ: جمْعُ مُوقِنٍ، واليقينُ من صِفاتِ العِلمِ، يُقال: عِلم يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكمِ، واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِقُ للواقِعِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

حم (1).

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذينِ الحرْفينِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها.

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2).

أي: أُقسمُ بالقُرآنِ الواضِحِ الموضّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إلى بَيانِه.[74]

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3).

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في ليْلةٍ كَثيرةِ البركاتِ والخيْراتِ، وهي ليْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ.[75]

---

(74) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٦٩) احتمالين في معنى: ﴿المبين﴾، فقال: «﴿المبين﴾ يحتمل أن يكون مِن الفعل المتعدي؛ أي: يبيّن الهدى والشرع ونحوه، ويحتمل أن يكون من غير المتعدي؛ أي: هو مبين في نفسه».

(75) اختلف المفسرون في تعيين الليلة المباركة التي يُفْرق فيها كلّ أمر حكيم على قولين: الأول: أنها ليلة القدر.

وهو قول جمهور المفسرين.

الثاني: أنها ليلة النّصف من شعبان.

وهو قول عكرمة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٦ - ١٠)، وابنُ القيم (٢/ ٤٤٠)، وابنُ كثير (١٢/ ٣٣٤) القول الأول.

كما قال تعالَى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ [البقرة: 185].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [القدر: 1].

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ.

أي: إنَّا كُنَّا مُخَوِّفِينَ ومُحَذِّرِينَ النَّاسَ بالقُرآنِ مِن أنْ تَحُلَّ بِهِم عُقوبتُنا إنْ لم يَتوبوا مِن شِرْكِهم وكُفرِهم وعِصيانِهم.

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4).

أي: يُقضَى ويُبيَّنُ ويُكتَبُ في ليْلةِ القَدرِ المباركةِ كُلُّ أمْرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ البالِغةِ.

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5).

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا.

أي: حالَ كَونِ ذلك الأمْرِ أمْرًا مِن عِندِنا.

وانتقدوا القول الثاني، استنادًا إلى القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١].

قال ابنُ كثير: «ومَن قال: إنها ليلة النصف من شعبان –كما رُوي عن عكرمة– فقد أبعد النَّجْعَة، فإنّ نصَّ القرآن أنها في رمضان».

ثم أورد حديث عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله – ﷺ – قال: «تُقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إنّ الرجل لينكح ويولد له، وقد أُخرج اسمه في الموتى».

وبيّن عدم صحة الاستدلال به على أنها ليلة النصف من شعبان، فقال: «فهو حديث مرسل، ومثله لا يُعارَضُ به النصوص».

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ.

أي: إنَّا كنَّا مُرسِلين رَسولًا يَتْلو آياتِ اللهِ، ويُبَلِّغُ رِسالتَه.(76)

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6).

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.

أي: رَحمةً مِن رَبِّك –يا محمَّدُ– بعِبادِه.

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العَليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7).

أي: خالِقِ السَّموات والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، والمالِكِ والمُدبِّرِ لجميعِ ذلك، إنْ كُنتُم مُتحَقِّقين بذلك.

---

(76) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٧٠) احتمالين في قوله تعالى: ﴿إنا كنا مرسلين﴾: الأول: أن المراد: «إرسال الرسل والأنبياء».
والثاني: أنّ المراد: «الرحمة» التي ذُكِرَت بعد ذلك.
ثم علَّق على الاحتمال الأول بقوله: «وعلى التأويل الأول نُصب قوله: ﴿رحمة﴾ على المصدر، ويُحتمَل أن يكون نصبها على الحال».

كما حَكى تعالَى قَولَ مُوسى لِفرعَونَ ومَلَئِه: قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ [الشعراء: 24].

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8).

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه دُونَ ما سِواه.

يُحْيِي وَيُمِيتُ.

أي: هو المتصَرِّفُ وَحْدَه بالإحياءِ والإماتةِ؛ فيُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن الأحياءِ.

كما قال تعالَى: هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يونس: 56].

رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ.

أي: هو خالِقُكم ومالِكُكم ورازِقُكم أنتُم وآبائِكم الذين مِن قَبْلِكم.

سُورَةُ الدُّخَانِ

الآيات (9–16)

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ
هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَارْتَقِبْ: أي: فانتَظِرْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ.

يَغْشَى: أي: يُغَطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

أَنَّى: كَلِمةٌ يُسألُ بها عن الحالِ والمكانِ، بمعْنى: كيفَ ومِن أينَ.

نَبْطِشُ: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9).

أي: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، وإنَّما هم مُنغمِرونَ في شَكِّهم، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ بالباطِلِ عن اتِّباعِ الحَقِّ.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10).

أي: فانتَظِرِ –يا محمَّدُ– اليَومَ الَّذي تأتي فيه السَّماءُ بدُخَانٍ ظاهِرٍ.[77]

---

(77) اختلف المفسّرون في وقت الدخان على ثلاثة أقوال: الأول: أنه الدُّخان الذي رأته قريش حين دعا عليهم رسول الله – ﷺ – بسبع كسبع يوسف – عليه السلام –، فأصابهم جوع، فكانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدُّخان من الجوع.

وهو قول ابن مسعود، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والضّحّاك، ومقاتل.

الثاني: دُخان يجيء قبل القيامة فيأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام.

وهو قول علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وابن عباس، والحسن.

الثالث: أنه كان يوم فتح مكة.

وهو قول أبي هريرة، والأعرج.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٠) –مستندًا إلى السياق– القول الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله –جل ثناؤه– توعّد بالدخان مشركي قريش، وأنّ قوله لنبيه – ﷺ –: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ في سياق خطاب الله كفار قريش، وتقريعه إياهم بشركهم بقوله: ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين بل هم في شك يلعبون﴾، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه –عليه الصلاة والسلام–: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ أمرًا منه له بالصبر إلى أن يأتيهم بأسه وتهديدًا للمشركين، فهو بأن يكون إذ كان وعيدًا لهم قد أحلَّه بهم أشبه مِن أن يكون أخّرَهُ عنهم لغيرهم».

وعلّق ابنُ عطية (٧/ ٥٧١) على القول الأول بقوله: «وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل».

ورجّح ابنُ كثير (١٢/ ٣٣٩) –مستندًا إلى ظاهر القرآن، والسنة، والدلالة العقلية– القول الثاني، وانتقد الأول، فقال بعد أن أورد عدة أحاديث وآثار فيه، ومنها قول ابن عباس من طريق ابن أبي مليكة: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وهكذا قول مَن وافقه مِن الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة مِن الصّحاح والحسان وغيرهما، التي أوردناها مما فيه

عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((اطَّلعَ النَّبيُّ - ﷺ - علينا ونحن نَتذاكَرُ، فقال: ما تَذاكرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ. قال: إنَّها لنْ تقومَ حتَّى تَرَونَ(78) قبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عِيسى بنِ مَريمَ - ﷺ -، ويأجوجَ ومَأجوجَ،

مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدُّخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تعالى: ﴿فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بيّن واضح يراه كل أحد.

وعلى ما فسّر به ابن مسعود؟: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد.

وهكذا قوله: ﴿يَغْشى النّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويعُمهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخصّ أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشى النّاسَ﴾».

وجعل ابنُ جرير (٢١/ ٢٠ - ٢١) الحكم بصحة القول الثاني متوقفة على صحة حديث حذيفة المُثبت لكون النبي - ﷺ - فسّر الدُّخان في الآية بدخان يوم القيامة، ثم انتقد صحة الحديث بقوله: «وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روّادًا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا.

فقلت له: فقرأته عليه؟ فقال: لا.

فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقرَّ به؟ فقال: لا.

فقلت: فمِن أين جئتَ به؟ قال: جاءني به قومٌ، فعرضوه عليَّ، وقالوا لي: اسمعه منّا.

فقرءوه عليَّ، ثم ذهبوا، فحدّثوا به عنّي، أو كما قال».

وعلَّق ابنُ كثير (١٢/ ٣٣٧) على انتقاده للحديث بقوله: «وقد أجاد ابنُ جرير في هذا الحديث هاهنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابنُ جرير من سياقه في أماكن مِن هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جدًّا، ولا سيما في أول سورة بني إسرائيل في ذكر المسجد الأقصى».

ثم بيّن ابنُ جرير أنّ انتقاده لا يُراد به إنكار وقوع الدُّخان في المستقبل -لثبوت ذلك في السنة-، وإنما كان انتقاده متجهًا إلى تفسير الآية به، فقال: «وبعد، فإنه غير منكر أن يكون أحلَّ بالكفار الذين توعّدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون مُحِلًّا فيما يُستأنَفُ بعد بآخرين دُخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - عندنا كذلك؛ لأن الأخبار عن رسول الله - ﷺ - قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روى عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رُويا عن رسول الله - ﷺ - صحيح، وإن كان تأويل الآية في هذا الموضع ما قلنا».

وقال ابنُ عطية (٧/ ٥٧٢): «ويحتمل إن صحَّ حديثُ حُذيفة أن يكون قد مرَّ دُخان، ويأتي دُخان آخر».

(78) قال العُكبري: (في هذا الحديثِ: «حتَّى تَرَونَ» بالنونِ، ولا وجهَ له؛ لأنَّ «حتى» بمعنى: إلى أنْ).

((إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث)) (ص: 74).

وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمَشرِقِ، وخَسفٌ بالمَغرِبِ، وخَسفٌ بجَزيرةِ العَرَبِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحشَرِهم)).[79]

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11).

يَغْشَى النَّاسَ.

أي: يُغَطِّي ذلك الدُّخانُ النَّاسَ ويَعُمُّهم.

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: فيَقولون: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ.[80]

كما قال اللهُ تعالَى: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [يوسف: 105 – 107].

---

(79) رواه مسلم (2901).

(80) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٧٢) احتمالين في قوله تعالى: ﴿هذا عذاب أليم﴾، فقال: «وقوله تعالى: ﴿هذا عذاب أليم﴾ يحتمل أن يكون إخبارًا من الله تعالى، كأنه يعجب منه على نحو مِن قوله تعالى لما وصف قصة الذبح: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات: ١٠٦]، ويحتمل أن يكون ﴿هذا عذاب أليم﴾ من قول الناس، كأنّ تقدير الكلام، يقولون: هذا عذاب أليم».

ثم علَّق على الاحتمال الثاني بقوله: «ويؤيد هذا التأويل سياقه تعالى حكايةً عنهم أنهم يقولون: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾».

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12).

أي: يقولُ الكافِرونَ حينَ يُصيبُهم ذلك: يا رَبَّنا، ارفَعْ عنَّا عَذابَك؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَ عنَّا هذا العَذابَ!

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13).

أي: كيْفَ يَتسنَّى للكُفَّارِ التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ عندَ حُلولِ ذلك العَذابِ بهم، والحالُ أنَّه قدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، مُظهِرٌ لهم الحَقَّ مِن عِندِه تعالَى؟!

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14).

أي: ثمَّ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الرَّسولِ، وقالوا: هو مُعلَّمٌ علَّمه أحدٌ هذا القُرآنَ، ثمَّ هو مجنونٌ وليْس رَسولًا كما يَدَّعي!

كما قال الله تبارك وتعالَى: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [الحجر: 6].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل: 103].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 4، 5].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ [المؤمنون: 70].

وقال تعالَى: وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ [القلم: 51].

إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15).

أي: إنَّا كاشِفو العذابِ عنكم وَقتًا قليلًا، ولكِنَّ عَودتَكم -أيُّها المُشرِكونَ- إلى ما كنتُم عليه مِن الضَّلالِ بعْدَ كَشْفِ العَذابِ عنكم: أمرٌ ثابِتٌ مُؤَكَّدٌ!

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16).

أي: يومَ نَأخُذُ المُشرِكِينَ بقُوَّةٍ وأخذٍ عَنيفٍ شَديدٍ؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم.(81)

---

(81) اختلف المفسرون في البطشة الكبرى بحسب اختلافهم السالف ذكره في وقت الدُّخان والمراد منه، فالقائلون بأنه مضى وأنه ما نزل بكفار قريش من القحط والجوع فسّروا البطشة الكبرى بيوم بدر، والقائلون بأنه دُخان يكون قبل قيام الساعة فسّروا البطشة الكبرى بأنها يوم القيامة.

هذا حاصل ما قرره ابنُ جرير (٢١/ ٢٨).

وبنحوه ابنُ كثير (١٢/ ٣٤٠) فقال: «وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إنّا مُنْتَقِمُونَ﴾ فسّر ذلك ابن مسعود بيوم بدر.

وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدُّخان بما تقدم، ورُوي أيضًا عن ابن عباس [وجماعة] من رواية العوفي، عنه، وعن أُبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل».

ثم رجّح أنّ البطشة الكبرى: يوم القيامة، وأنّ القول بأنها يوم بدر داخل تحت مدلول البطشة، فقال: «والظاهر أنّ ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا».

سُورةُ الدُّخَانِ

الآيات (17–24)

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

فَتَنَّا: أي: ابتَلَيْنا واختبَرْنا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ.

أَدُّوا إِلَيَّ: أي: سَلِّموا إليَّ، وأَرسِلوا معي، وأصلُ (أدي): يدُلُّ على إيصالِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، أو وُصولِه إليه مِن تِلْقاءِ نفْسِه.

بِسُلْطَانٍ: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ.

عُذْتُ: أي: التجأتُ واعتصَمتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ والتَّعَلُّقُ به.

تَرْجُمُونِ: أي: تَقتُلوني رميًا بالحِجارةِ، والرَّجمُ أيضًا: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ.

فَاعْتَزِلُونِ: أي: اترُكوني وفارِقوني، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ.

فَأَسْرِ: أي: سِرْ بهم لَيلًا، مِنَ السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ.

رَهْوًا: أي: ساكِنًا مُنفرِجًا، وأصلُ (رهو): يدُلُّ على سُكونٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17).

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ.

أي: ولقد اختبَرْنا وابتَلَيْنا قبْلَ كُفَّارِ قومِك -يا محمَّدُ- قومَ فِرعَونَ مِن القِبطِ.

وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ.

أي: وجاء قومَ فِرعَونَ رسولٌ كريمٌ أرسلَنْاه إليهم، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18).

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ.

أي: فقال موسى لِفرعَونَ ومَلَئِه: أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، وادفَعوهم إلَيَّ.[82]

كما قال تعالى: فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ [طه: 47].

---

(82) ذكر ابن عطية (٧/ ٥٧٣) اختلافًا في الشيء المؤدى على قولين: الأول: أنه طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل.

الثاني: أن يؤدوا إليه الطاعة والإيمان والأعمال.

وقد علّق عليهما، فقال: «والظاهر مِن شرع موسى – عليه السلام – أنه بُعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان، وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن بقيت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، وفي إرسالهم هو قوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ﴾ أي: بني إسرائيل، ويقوي ذلك قوله بعدُ: ﴿وإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فاعْتَزِلُونِ﴾، وهذا قريب نص في أنه إنما يطلب بني إسرائيل فقط، ويؤيد ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي﴾، فيظهر أنه إياهم أراد موسى بقوله: ﴿عِبادَ اللَّهِ﴾».

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

أي: إنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى إليكم، بالِغُ الأمانةِ على الرِّسالةِ الَّتي أمَرَني اللهُ أن أبَلِّغَكم إيَّاها بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ ولا كِتمانٍ.

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19).

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ.

أي: ولا تَستكبِروا عن الإيمانِ بآياتِ اللهِ واتِّباعِها، فتَكفُروا به، وتُخالِفوا أمْرَه.

إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ.

أي: إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ تُثبِتُ صِحَّةَ ما أدعوكم إليه وتُظهِرُه.

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20).

أي: وإنِّي اعتصَمْتُ برَبِّي وربِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ.[83]

---

(83) اختلف السلف في معنى الرّجم على أقوال: الأول: أنه الشتم والسّب.

الثاني: أنه الرّجم بالحجارة.

الثالث: أنه القتل.

وقد رجح ابنُ جرير (٢١/ ٣٢) –مستندًا إلى عموم الآية– صحّة جميع تلك الأقوال، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلّ عليه ظاهر الكلام، وهو أنّ موسى – عليه السلام – استعاذ بالله مِن أن يرجمه فرعون وقومه، والرّجم قد يكون قولًا باللسان، وفعلًا باليد، والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه مِن كلّ معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارة باليد».

كما قال تعالى: وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ [غافر: 27].

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21).

أي: وإنْ لم تؤمنوا بما أمَرْتُكم وجِئْتُكم به مِن عندِ اللهِ فلا ترْجموني، واترُكوني وشأْني، ولا تتعرَّضوا لي.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22).

أي: فدعا موسى ربَّه بأنَّ هؤلاء الأراذِلَ قَومٌ مُتَّصِفونَ بالإجرامِ وعَريقونَ فيه.

كما قال تعالى: وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 88].

وقال سُبحانَه: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ [الأعراف: 133].

ورجّح ابنُ عطية (٧/ ٥٧٤ بتصرف) –مستندًا إلى الدلالة العقلية– القول الثاني، فقال: «قال قتادة وغيره: أراد الرجم بالحجارة المؤدّي إلى القتل.

وهو أظهر؛ لأنه أعيذ منه، ولم يعذ من الآخر، بل قيل فيه – عليه السلام – وله».

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23).

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا.

أي: فأجاب اللهُ دُعاءَ موسى، فقال له: سِرْ بعبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى [طه: 77].

إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ.

أي: إنَّ فِرعَونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم ويَطلُبونَكم.

كما قال تعالى: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا [يونس: 90].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ [الشعراء: 52 – 56].

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ [الشعراء: 60].

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24).

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا.

أي: قال اللهُ لِموسى: واترُكِ البَحرِ باقيًا على هيئتِه الَّتي هو عليها ساكِنًا مُنفَرِجًا مَفتوحًا ذا فَجوةٍ واسعةٍ.(84)

إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ.

أي: إنَّ فِرعَونَ وقَومَه غارِقونَ في البَحرِ لا مَحالةَ.

كما قال تعالى: فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [الشعراء: 63 – 66].

---

(84) اختُلف في معنى قوله: ﴿رهوا﴾ على أقوال: الأول: على هيئته وحاله التي كان عليها.

الثاني: سهلًا.

الثالث: يبسًا جُدُدًا.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢١/ ٣٧) –مستندًا إلى اللغة– القول الأول، وبيّن أنه يعمُّ القولين الآخرين، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: معناه: اتركه على هيئته كما هو على الحال التي كان عليها حين سلكته، وذلك أنّ الرّهو في كلام العرب: السكون...

وإذ كان ذلك معناه كان لا شك أنه متروك سهلًا دَمِثًا، وطريقًا يبسًا؛ لأن بني إسرائيل قطعوه حين قطعوه وهو كذلك، فإذا ترك البحر رهوًا كما كان حين قطعه موسى ساكنًا لم يهج؛ كان لا شك أنه بالصفة التي وصفت».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٧/ ٥٧٥).

سُورةُ الدُّخَانِ

الآيات (25-33)

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ
(27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا
مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا
فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَنَعْمَةٍ: أي: مُتعةٍ ونَعيمٍ وعَيشٍ لَيِّنٍ، والنَّعْمةُ -بفَتحِ النُّونِ: طِيبُ العَيشِ وسَعَتُه ولَذاذةُ الحياةِ، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعَمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ.

فَاكِهِينَ: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ.

الْآيَاتِ: أي: العِبَرِ والعِظاتِ، أو: المعجزاتِ، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ والدَّليلِ والحُجَّةِ وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ.

بَلَاءٌ: أي: اختبارٌ، وأصلُ البلاءِ هنا: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ، وقيل: البلاءُ هنا النِّعمةُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25).

أي: ما أكثَرَ ما ترَكَه فِرعَونُ وقَومُه مِن بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، مِن بَعدِ إغراقِهم![85]

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26).

أي: وما أكثَرَ ما ترَكوه من زُروعٍ قائمةٍ، ومَواضِعَ أنيقةٍ وأماكِنَ حَسَنةٍ شَريفةٍ![86]

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27).

أي: ورَغَدِ حياةٍ وهَناءِ عَيشٍ ورَفاهيةٍ كانوا يَتنعَّمونَ فيها، ويَتلذَّذونَ بها!

(85) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٧٦) أن «العيون» تحتمل احتمالين: الأول: أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل، فشبّهها بالعيون.
الثاني: أنه كانت ثَمَّ عيون ونضبت، كما يعتري في كثير من بقاع الأرض.

(86) في معنى المقام الكريم قولان: الأول: المنابر.
الثاني: المواضع الحسان.
وانتقد ابنُ عطية (٧/ ٥٧٧) القول الأول، بقوله: «والقول بالمنابر يهي جدًّا».

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ: فَكِهِينَ قيل: بمعنى: فَرِحينَ أشِرينَ بَطِرينَ. وقيل: مُستَخِفِّينَ مُستَهزِئينَ.(87)

2- قِراءةُ: فَاكِهِينَ قيل: بمعنى: ناعِمينَ طَيِّبي الأنفُسِ، أو أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: بمعنى: لاهينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ، مِثلُ كَلِمتَيْ: حاذِرينَ وحَذِرينَ.(88)

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28).

أي: كذلك وأورَثْنا بني إسرائيلَ تلك الجنَّاتِ والعُيونَ، والزُّروعَ، والمَقامَ الكريمَ الَّذي كان لِفرعَونَ وقَومِه.

كما قال الله تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 137].

---

(87) قرأ بها أبو جعفرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (354/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (39/21)، ((معاني القراءات)) للأزهري (132/3)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (623/9).

(88) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (354/2، 355).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (132/3)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (623/9).
وقال السمين الحلبي: (وقيل: الفاكِهُ: ذو الفاكهة، نحو: لابِنٍ، وتامرٍ.
والفَكِهُ: مَن بالَغَ في ذلك).
((عمدة الحفاظ)) (248/3).

وقال سُبحانَه: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 57 – 59].

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29).

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ.

أي: فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه الَّذين أغرَقَهم اللهُ تعالى في البَحرِ![89]

---

(89) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٧٨) ما جاء في آثار السلف من بكاء السماء والأرض على الصالحين، وما ورد أن بكاء السماء حمرتها، ثم رجّح –مستندًا إلى النظائر– أنّ البكاء مستعار لتحقير أمرهم، فقال: «المعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغيّر عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وإن كان مكرهم لتزول﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من قرأ: ﴿لتزول﴾ بكسر اللام ونصب الفعل، وجعل ﴿إن﴾ نافية، ومثل هذا المعنى قول النبي – عليه السلام –: «لا ينتطح فيها عنزان».

فإنه يتضمن التحقير».

عن يزيد بن أبي زياد، قال: لَمّا قُتِل الحسين احمرّتْ آفاقُ السماء أربعة أشهر

– عن سفيان الثوري، قال: كان يُقال: هذه الحُمرة التي تكون في السماء بكاء السماء على المؤمن

أخرجه ابن أبي حاتم –كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٢٤٠ –.

انتقد ابنُ كثير (١٢/ ٣٤٥) –مستندًا إلى دلالة العقل، والتاريخ– ما جاء في قول يزيد من احمرار أُفق السماء، فقال: «وذكروا أيضًا في مقتل الحسين أنه ما قُلب حجر يومئذ إلا وُجد تحته دم عبيط، وأنه كُسفت الشمس، واحمرّ الأُفق، وسقطت حجارة.

وفي كلّ مِن ذلك نظر، والظاهر أنه مِن سخَف الشيعة وكذبهم؛ ليعظّموا الأمر –ولا شك أنه عظيم–، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم مِن ذلك ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قُتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان قُتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيء من ذلك، وعمر بن الخطاب؟ قُتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك.

وهذا رسول الله – ﷺ – وهو سيّد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه.

وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ.

أي: وما كانوا مُؤَخَّرين بالعُقوبةِ حينَ جاء وَقتُ هلاكِهم.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30).

أي: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ وقَومِه المُذِلِّ لهم؛ كذَبحِ أبنائِهم، واستِحياءِ نِسائِهم، واستِعبادِهم وتَكليفِهم الأعمالَ الشَّاقَّةَ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [البقرة: 49، 50].

مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31).

مِنْ فِرْعَوْنَ.

أي: نَجَّيناهم مِن فِرعَونَ.

ويوم مات إبراهيم بن النبي – ﷺ – خُسفت الشمس، فقال الناس: الشمس خُسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله – ﷺ – صلاة الكسوف، وخطبهم وبيّن لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مُتَّصِفًا بالاستِعلاءِ والاستِكبارِ والإسرافِ وتجاوُزِ الحَدِّ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [يونس: 83].

وقال سبحانه: فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ [المؤمنون: 46 – 48].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 4].

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32).

أي: ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ –على عِلمٍ مِنَّا بهم وبأهليَّتِهم لهذا الاختيارِ[90]– على عالَمِي زمانِهم.

(90) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٨٠) في قوله: ﴿على علم﴾ احتمالين، وبحسب كل احتمال منهما يختلف المراد بـــ ﴿العالمين﴾:
الأول: معناه: على شيء سبق عندنا فيهم، ويكون قوله: ﴿على العالمين﴾ مرادًا به جميع الناس.
والمعنى: «لقد اخترناها لهذا الإنجاء وهذه النّعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم».
الثاني: أن قوله: ﴿على علم﴾ معناه: على علم لهم وفضائل فيهم، فيكون قوله: ﴿على العالمين﴾ أي: على عالم زمانهم، والمعنى: «اخترناهم للنبوات والرسالات».
وقال ابنُ القيم (٢/ ٤٤١): «لا خلاف بين الناس أن المعنى: على علم منّا بأنهم أهل الاختيار.
فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم».

وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33).

أي: وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ.[91]

---

(91) اختُلف في البلاء المذكور في قوله: ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ على قولين: الأول: أنه ابتلاهم بنعمه عليهم من فلْق البحر وإنجائهم من عدوهم وغير ذلك.

الثاني: أنه ابتلاهم بالشدة والرخاء.

ورجّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٨) جواز القولين؛ للعموم، وعدم وجود دليل يشـــهد لأحدهما دون الآخر، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصـــواب أن يُقال: إنّ الله أخبر أنه آتى بني إســـرائيل من الآيات ما فيه ابتلاؤهم واختبارهم، وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشدة، ولم يضع لنا دليلًا مِن خبر ولا عقل أنه عنى بعض ذلك دون بعض، وقد كان الله اختبرهم بالمعنيين كليهما جميعًا.

وجائز أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمر على ما وصفنا فالصواب من القول فيه أن نقول كما قال -جل ثناؤه-: إنه اختبرهم».

سُورةُ الدُّخَانِ

الآيات (34-39)

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)

غَريبُ الكَلِماتِ:

بِمُنْشَرِينَ: أي: **بمَبعوثِينَ**، وأصلُ (نشر): **يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه**.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34).

أي: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ:

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35).

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى.

أي: ما هي إلَّا مَوتَتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا، ولا حياةَ بعدَها.

وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ.

أي: وما نحن بمَبعوثِينَ.

فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36).

أي: فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ، فلْيَرجِعوا إلى الدُّنيا أحياءً بعدَ مَوتِهم إنْ كُنتُم حَقًّا صادِقِينَ في أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا!

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [الجاثية: 25، 26].

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37).

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أمُشرِكو قُرَيشٍ خَيرٌ أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ والَّذين مِن قَبْلِهم مِن الأُمَمِ الكافِرةِ كعادٍ وثَمودَ؟!

كما قال الله تعالى: أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ [القمر: 43].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟).[92]

أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ.

أي: مع أنَّهم خَيرٌ منهم أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ، فلا يمتَنِعُ أن نُهلِكَ كُفَّارَ قُرَيشٍ وهم دُونَهم، كما أُهلِكَ مَنْ قَبْلَهم!

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38).

أي: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ لَعِبًا بلا مَعنًى ولا فائِدةٍ!

---

(92) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (2819)، ومن طريقه الحاكمُ في ((المستدرك)) (488/2) واللَّفظُ له.
قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَين)، ووافقه الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (549/5)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (37/ 520): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخَين).

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال سُبحانه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 190، 191].

وقال الله عزَّ وجلَّ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: 115].

وقال تبارك وتعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات: 56].

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39).

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ.

أي: ما خلَقْنا السَّمَوَاتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، ومن أجْلِ إقامةِ الحقِّ بعِبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له؛ فيُمتَحَنُ العبادُ بذلك أمرًا ونَهيًا، ثم يُجازَون عليه بعد بَعْثِهم ثوابًا أو عِقابًا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثرَ المُشركِينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقّ، وأنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِ العِبادِ ومُجازاتِهم على أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ فهم لا يَخافونَ عُقوبةً على ما يأتونَه مِن سَخَطِ اللهِ، ولا يَرجُونَ ثَوابًا على خيرٍ فَعَلوه؛ لِتَكذيبِهم بالمعادِ إلى اللهِ تعالى.

كما قال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [الروم: 8].

سُورةُ الدُّخَانِ

الآيات (40–50)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ
(41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ
(44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ
(47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ
هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يَوْمَ الْفَصْلِ: أي: يومَ القيامةِ، وسُمِّيَ يومَ الفَصلِ؛ لأنَّه يومٌ يُفصَلُ فيه بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، والظَّالِمِ والمظلومِ؛ بأن يَحكُمَ اللهُ بيْنَ عِبادِه، فيَفصِلَ بيْنَهم بالعدلِ مِن قَضائِه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه.

مِيقَاتُهُمْ: أي: وَقْتٌ يجتمِعون فيه، والمِيقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوعدُ الَّذي جُعِل له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حدِّ شَيءٍ وكُنْهِه، في زمانٍ وغيرِه.

مَوْلًى: المَوْلى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ.

الزَّقُّوم: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ، كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تَزَقَّمَ الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ.

الْأَثِيمِ: أي: الآثِمِ الفاجِرِ، المُتمادي في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ الآثِمَ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه.

كَالْمُهْلِ: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، أو: ما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ.

الْحَمِيمِ: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ.

فَاعْتِلُوهُ: أي: ادفعوه، وسُوقوه بشِدَّةٍ، يُقالُ: عَتَله يَعتِلُه عَتْلًا: إذا ساقه بالعُنفِ والدَّفعِ والجَذْبِ، والعَتْلُ: الدَّفعُ، والإرهاقُ بالسَّوقِ العَنيفِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ.

سَوَاءِ الْجَحِيمِ: أي: وَسَطِ جهنَّمَ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ.

تَمْتَرُونَ: أي: تَشُكُّون وتُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخَصُّ مِن الشَّكِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40).

أي: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المحدَّدُ للخَلقِ أجمعينَ أوَّلِهم وآخِرِهم، فيُفصَلُ فيه بيْنَ الحَقّ والباطِلِ، ويُفصَلُ فيه بيْنَ الخَلائِقِ؛ فيُعاقَبُ المُسيئونَ، ويُثابُ المحسِنونَ.

كما قال تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا [النبأ: 17].

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41).

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا.

أي: يومَ لا يَنفَعُ قريبٌ قريبَه، ولا صاحِبٌ صاحبَه، ولا يَدفَعُ عنه شيئًا مِن عقوبةِ اللهِ الَّتي حَلَّتْ به.

كما قال تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [المؤمنون: 101].

وقال سُبحانَه: فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا [سبأ: 42].

وقال جلَّ ثناؤُه: وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [الانفطار: 17 – 19].

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: ولا هم يُمنَعونَ مِن عذابِ اللهِ.(93)

كما قال تعالى: وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [البقرة: 48].

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42).

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ.

أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَشفَعُ بَعضُهم لبَعضٍ بإذنِ اللهِ تعالى.

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ البالِغةِ، ومِن ذلك قَهرُه وانتِقامُه مِن الكافِرينَ؛ المتَّصِفُ بالرَّحمةِ البالِغةِ، ومِن ذلك رَحمتُه بالمُؤمِنينَ.

---

(93) قال ابنُ عطية (٧/ ٥٨٢): «قوله: ﴿ولا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ إن كان الضمير يُراد به: العالم، فيصح أن تكون ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿إلا من رحم الله﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل.

وإن كان الضمير يراد به: الكفار، فالاستثناء منقطع، ويصح أنْ يكون في موضع رفع على الابتداء، والخبر مقدر، تقديره: فإنه يغني بعضهم عن بعض في الشفاعة ونحوها.

أو يكون تقديره: فإنّ الله ينصره».

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44).

أي: إنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ هي طَعامُ المُبالِغِ في اكتِسابِ الآثامِ مِن الكُفَّارِ والفُجَّارِ.

كما قال تعالى: إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ [الصافات: 64 – 66].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ [الواقعة: 51 – 56].

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45).

أي: ذلك الطَّعامُ يكونُ كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ الَّذي بلغ الغايةَ في الحَرارةِ، يَغلي في بُطونِ آكِليه.

كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46).

أي: كغَلَيانِ الماءِ الَّذي تناهَت حرارتُه!

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47).

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العَذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فسُوقوه واسحَبوه بعُنفٍ وغِلظةٍ ومَهانةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ(94) الَّتي في غايةِ الاضطِرامِ والتَّوقُّدِ!

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48).

أي: ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ البالغِ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فيَعُمُّ العَذابُ جَميعَ بَدَنِه!

كما قال تعالى: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [الحج: 19، 20].

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49).

أي يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كُنتَ في الدُّنيا العزيزَ في قَومِك، الكريمَ عليهم في زَعمِك، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذَليلٌ مَهينٌ!

قال تعالى: وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [سبأ: 42].

---

(94) قال ابنُ عطية (٧/ ٥٨٣ – ٥٨٤): «والسواء: الوسط.
وقيل: المُعْظَم.
وذلك متلازم، المُعْظم أبدًا من مثل هذا إنما هو في الوسط».

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50).

أي: إنَّ هذا هو العَذابُ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تَشُكُّونَ فيه، وتُجادِلونَ في وُقوعِه؛ فذُوقوه فقد عَلِمتُم الآنَ حقيقتَه يَقينًا!

كما قال تعالى: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ [الطور: 14، 15].

سُورةُ الدُّخَانِ

الآيات (51-59)

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ
(59)﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

سُنْدُسٍ: أي: رَقيقِ الحَريرِ.

وَإِسْتَبْرَقٍ: أي: غليظِ الحريرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51).

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نَهَى عنه: مُستَقَرُّهم في الجنَّةِ في مَوضعٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِنَ الموتِ والخُروجِ، ومِن كُلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ ونَكَدٍ، ومِن سائِرِ الآفاتِ والمصائِبِ.

كما قال الله تعالى: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا [الفرقان: 24].

وقال سُبحانَه: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا [الفرقان: 75، 76].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ: مُقَامٍ بضَمِّ الميمِ. قيل: بمعنى الإقامةِ، فيَكونُ المعنى أنَّ المتَّقينَ في مُقامٍ أمينٍ مِنَ الانتِقالِ والارتِحالِ عنه، فهم في إقامةٍ دائمةٍ في الجنَّةِ، أو يكونُ قَولُه تعالى: أَمِينٍ وَصفًا لِمُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، أي: في مَوضِعِ إقامةٍ أمينٍ. وقيل: يحتَمِلُ أن يريدَ به المكانَ مِن «أقامَ»، فيَكونَ بمعنى القراءةِ الثَّانيةِ.[95]

---

(95) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/371).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (21/63)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/168)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 657).

2- قِراءةُ: مَقَامٍ بفَتحِ الميمِ، أي: في مَوضعٍ آمِنٍ مِنَ الخُروجِ منه، ومِن الأوصابِ والعِلَلِ والأنصابِ والأحزانِ، وغيرِ ذلك مِن المَخاوِفِ والآفاتِ.[96]

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52).

أي: مَقامُهم في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ.

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53).

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ.

أي: يَلبَسونَ فيها الحَريرَ الرَّقيقَ النَّاعِمَ، والغَليظَ اللَّامِعَ البَرَّاقَ.

كما قال تعالى: وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ [الكهف: 31].

وقال سُبحانَه: وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [الحج: 23].

مُتَقَابِلِينَ.

أي: مُتواجِهينَ يُقابِلُ بَعضُهم بعضًا بالوُجوهِ، فلا يَجلِسُ أحَدٌ منهم وظَهرُه إلى غيرِه.

---

(96) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/371).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (21/63)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/168)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 657).

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54).

أي: كذلك، وزَوَّجْناهم بنساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ مع قوَّةِ سَوادِها، واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها.

كما قال تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ [الطور: 20].

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آَمِنِينَ (55).

أي: يَطلُبُ المتَّقونَ في الجنَّةِ كُلَّ ما يَشتَهونَه مِن أنواعِ الفَواكِهِ، فتَأتيهم في كُلِّ حينٍ، آمِنينَ مِن نَفادِها أو انقِطاعِها، وآمِنينَ مِن أن يَنالَهم مِن أكْلِها ضَرَرٌ، أو يَلحَقَهم أذًى.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56).

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى.

أي: لا يَذوقُ المتَّقونَ في الجنَّةِ الموتَ أبدًا إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا.(97)

---

(97) بيّن ابنُ جرير (٢١/ ٦٧ – ٦٩) أن قوله: ﴿لا يذوقون فيها إلا الموتة الأولى﴾ معناه: «لا يذوق هؤلاء المتّقون في الجنّة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا».

ثم ذكر عن بعض أهل اللغة أنه وجّه ﴿إلا﴾ في هذا الموضع إلى أنها بمعنى: سوى.

وانتقده مستندًا إلى الأغلب من عادة العرب في كلامها، فقال: «وليس للذي قال مِن ذلك عندي وجه مفهوم؛ لأنّ الأغلب من قول القائل: لا أذوق اليوم الطعام إلا الطعام الذي ذقته قبل اليوم.

أنه يريد الخبر عن قائله أن عنده طعامًا في ذلك اليوم ذائقه وطاعمه دون سائر الأطعمة غيره، وإذا كان ذلك الأغلب من معناه وجب أن يكون قد أثبت بقوله: ﴿إلا الموتة الأولى﴾ موتة مِن نوع الأولى هم ذائقوها، ومعلوم أنّ ذلك ليس كذلك؛ لأن الله

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ؛ أُتِيَ بالموتِ حتَّى يُجعَلَ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثمَّ يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا مَوتَ، فيَزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويَزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم)).[98]

وعن أبي سَعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يُجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّه كَبشٌ أمْلَحُ،[99] فيُوقَفُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ[100] ويَنظُرون ويَقولونَ: نعَمْ، هذا الموتُ! ويُقالُ: يا أهلَ النَّارِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ ويقولونَ: نعَمْ، هذا الموتُ! فيُؤمَرُ به فيُذبَحُ، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا مَوتَ)).[101]

– عز وجل – قد أمَّن أهل الجنة في الجنة إذا هم دخلوها من الموت، ولكن ذلك كما وصفتُ من معناه، وإنما جاز أن توضع ﴿إلا﴾ في موضع» بعد «لتقارب معنييهما في هذا الموضع».

واستدرك ابنُ عطية (٧/ ٥٨٥) على ابن جرير في انتقاده هذا القول، فقال: «قدّر قوم ﴿إلّا﴾ بسوى، وضعّف ذلك الطبري، وقدّرها ببعد، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بسوى ويَتَّسِق».

(98) رواه البخاريُّ (6548)، ومسلمٌ (2850) واللَّفظُ له.

(99) أملَحُ: أي: في صوفِه بَياضٌ وسَوادٌ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (189/1).

(100) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (185/17).

(101) رواه البخاري (4730)، ومسلم (2849) واللَّفظُ له.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيّ – ﷺ –، قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أبدًا)).[102]

ووَقاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.

أي: ونجَّى اللهُ المُتَّقينَ مِن عَذابِ النَّارِ، فصَرَفَه عنهم.

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57).

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ.

أي: وقاهم اللهُ تعالى عذابَ الجَحيمِ تَفَضُّلًا مِن رَبِّك –يا محمَّدُ– عليهم، وإحسانًا منه إليهم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((قارِبوا وسَدِّدوا، واعلَموا أنَّه لن يَنجوَ أحَدٌ مِنكم بعَمَلِه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ولا أنتَ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ منه وفَضلٍ!)).[103]

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

---

(102) رواه مسلم (2837).

(103) رواه البخاري (5673)، ومسلم (2816) واللَّفظُ له.

أي: النَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ: هو الرِّبحُ والظَّفَرُ العَظيمُ الَّذي لا فوزَ غيرُه.

كما قال الله تبارك وتعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58).

أي: فإنَّما سَهَّلْنا على النَّاسِ –يا محمَّدُ– هذا القُرآنَ ويَسَّرْنا لهم بيانَه بلُغَتِك العَربيَّةِ الَّتي هي أفصَحُ اللُّغاتِ؛ لعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه، ويَتَّعِظونَ بعِظاتِه، ويَعمَلونَ به.

كما قال تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا [مريم: 97].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء: 192 – 195].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر: 17].

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59).

أي: فترَقَّبْ –يا محمَّدُ– ما يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والهلاكِ وانتَظِرْه؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ.

كما قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ [السجدة: 28 – 30].

تَمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

ويَليه المجلَّدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ، وأوَّله: تفسير سُورة الجاثيةِ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المُغني في التَّفسير

المُحرّرُ الجامعُ لِتفاسيرِ السّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا